مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

سرديات التمثيل وفاعلية الجَنْدر

-يتبع-

سامي كريم موشي
باحث عراقي

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة**
- 2024 12--26

جميع الحقوق محفوظة © 2024

سيرورة البحث في سيكولوجيَّة الدِّين

-يتبع-

مدخل:

إنَّ إعادة قراءة نصوص التراث السردي العربي من وجهة نظر نسوية، هي محاولة للوقوف إزاء الأنساق المشكّلة لفضاءات الوعي الاجتماعي الثقافي الذي تمظهر بمحتواه الإبداعي في صور شتّى من تفريعات الأنواع الأدبية التي كان السرد واحداً منها.

ولمّا كان السرد من بين أهم الأنواع الأدبية تلك المساهمة في بلورة الأفكار والتصورات والمفاهيم، لما يمتلكه هذا النوع من سلطة تخييلية فاعلة في محاكاة العقلية المجتمعية وسحبها إلى تلك العوالم المشكلة، لبسط هيمنتها الخطابية والتأثيرية، فإنه قد اكتسب أهمية بالغة في ساحة الإبداع العربي منذ قرونه الأولى، وظل شاهداً على فاعلية الوعي الاجتماعي والثقافي السائدين ضمن زمكانية الراهن؛ لأنَّ النص الإبداعي لا ينتج ضمن فراغ مطلقاً، إلا أن يكون كاشفاً ومعبراً وفاضحاً لمكونات الوعي والثقافة والإدراك.

ولهذا، فإنَّ المراجعة الدقيقة بوساطة النقد النسوي ترتكز على فضح التناقضات الجندرية التي تمثّلتها تلك الخطابات السردية بعد أن تأسست مجتمعياً ودينياً وثقافياً وسلوكياً، وأصبحت من المقولات السائدة المكتسبة لفرضيات البداهة والتسليم، واكتسبت صيغتها النهائية، ومرجعيتها الثابتة، وحقيقتها المطلقة، فالقراءة النسوية تُنصت إلى ذلك الصوت السائد والموجهات الخفية، وتتأمل سمات الهويات وصراعاتها الكونية، وتركز على صور الذات المشكلة في سياق الأنظمة الجندرية، وتتطرق إلى طبيعة علاقات القوى الجندرية وسياقاتها الثقافية والتاريخية وتقاطعاتها مع علاقات القوى القائمة على أسس عنصرية أو طبقية أو سلطوية بأي شكل من الأشكال، وتبحث عن موقع الذكورة والأنوثة ضمن تلك المساحات الثقافية والاجتماعية، فضلاً عن فضح المواقف الأيديولوجية المعبَر عن أنساقها من خلال الخطابات السردية، التي تسللت بكل تأكيد إلى مجمل العمليات الإبداعية وطوَّعت لها أشكالاً وهيئات ومسميات وقوالب تجاوزت بها حدود العادي والمألوف والمسلَّم به، لكي تضمن لها صدارة المركز، وفاعلية التعبير، وسيرورة الهيمنة[1].

إنَّ في الرجوع إلى إعادة قراءة التراث السردي العربي يتيح لنا بكل وضوح رؤية المستقبل، والراهن الذي مازال يتغذى بوشائج التواصل وروافد الاكتساب؛ لأنه يستند إليه ويقوم على قوانينه، واشتراطاته الدينية والعقدية والسلوكية والثقافية، وهو فضلاً عن ذلك يشكل جزءاً من ذواتنا نحن؛ لأنَّ الماضي كفيل بخلق الذات المتشكلة عبر مقولات أحرزت موقع الصدارة والتقدم والثبات في تاريخ الأُمة والجماعة، وظلت تمد المستقبل وتناوش الحالي والآني واليومي، حتى غدت حيواتنا عميقة التواشج مع الماضي؛ لأنه قاموس المراجعة، ودليل المعرفة، وكتاب الحياة والعبادة والسلوك والثقافة.

1 - هالة كمال، النقد الأدبي النسوي، ترجمة وتقديم: هالة كمال، مؤسسة المرأة والذاكرة، مصر، ط1، 2015: 16

كما أنَّ ذلك التراث الأدبي والفكري والديني والفلسفي...إلخ، يشكّل قيمة نسقية كبرى أسهمت بشكل فاعل في تحديد سماتنا الجوهرية، وفي رسم ملامح هويتنا الجماعية، وحتى في تشكيل ذواتنا؛ لأنَّ ذلك التراث يتشكّل فينا عبر أنساقه الظاهرة والمضمرة، ويتسلل إلى معارفنا ومعتقداتنا وسلوكياتنا وطرائق تفكيرنا؛ لأننا ببساطة مازلنا نمد جسور التواصل بين الحاضر والماضي، بين التراث والحداثة، بين المرويات والأخبار، بين العقائد والتصورات والممارسات، وبين المقولات الأولى التي منحتنا مادة الصوغ والتشكيل، ولهذا تكون إعادة المراجعة والقراءة في التراث «من دواعي تشكيل وعي جديد بذواتنا وهويتنا ومستقبلنا»[2] بلا أدنى شك، فهي الأداة الممكنة والفاعلة في سبر الذوات والكشف عن مكوّناتها والأنساق الحاكمة فيها، بل وأسسها وحقيقتها وجدواها وضرورتها، ومن ثم يمكننا الوقوف على مفترق البقاء والسيرورة، وبين الرفض والتقويض.

لكن هذه المراجعة لا تتم مرة واحدة؛ لأن التراث لا يمنح نفسه بصورة كلّية دفعة واحدة، وإنما يستجيب وفق ما نمتلكه نحن من أدوات للكشف والتعرية والتنقيب، ففي كل مراجعة سيتكشّف وجه، وتستبين جوانب، وتمتنع أخرى، وهكذا تكون مراجعاتنا مرتهنة بما نحمله من معرفة على كشف مالم يتم كشفه، وتحليل ما استعصى على مراجعة سابقة تحليله من بنيات وأنساق كامنة، وهذا إنما يكون بالاكتناز المعرفي والتسلح المنهجي الأداتي، أو بما يعبر عنه بتغيير زوايا النظر أو تجديدها، لكي تكون مراجعتنا للتراث، بأدوات جديدة، وبأسئلة جديدة، وبوعي جديد، ولغايات جديدة؛ أي أن تتجدد محاولاتنا للالتفات إلى التراث، وأن نستعين بكافة أنواع المعرفة، وأن نتجنب التكرار والنمذجة والإعادة في كل مرة.

ومن هنا نجد أنَّ محاولتنا هذه في إعادة مراجعة التراث السردي، تندرج تحت مساعينا الجادة للبحث عن أنساق أسهمت في تشكيل هويتنا الجندرية، وأكسبتنا خصائصنا الذكورية أو الأنثوية لنظل مأسورين لهذا التشكل النسقي دون أن نعرف حدود الحقيقي من المتخيل، أو ندرك أسباب ذلك التشكل هل هو طبيعي بيولوجي أم هو حالة ثقافية وصناعة نسقية وحاضنة لا علاقة لها بالعلم أو المعرفة أو الدين أو أي من هذا القبيل.

1- الأمثال: الصيغة والمتن الثقافي

لاشك أنَّ الأمثال العربية تشكل جزءاً مهمّاً من السردية العربية القديمة، وتمثّل جانباً من أهم الجوانب التي تبصّرنا بأحوال المجتمع وحياة الجماعة وطرائق تفكيرها وحكاياتها؛ لأنَّ النص- أي نص- لابد أن يعقد شبكات من العلاقات الحوارية بينه وبين حاضنته الثقافية والاجتماعية وهو يتبلور إزاءها لا بعيداً عنها، فلابد «من صلة بين النص وبين مهيمنات الثقافة في عصر معين»[3]، فهو فضلاً عن صفته الأدبية، ومادته اللغوية، فهو يمثل قيمة ثقافية تحمل في طياتها كل المؤثرات الممكنة والفعلية في تكوين العقلية الإبداعية أو فيما تنتجه تلك العقلية.

---

2 - سعيد يقطين، الكلام والخبر، سبق ذكره: 15

3 - لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب المفضل بن محمد الضبي-أمثال العرب، لؤي حمزة عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، 27

فالأمثال تتشكل وفق نظام من الصياغة والتحولات، وهي تنتقل من الإخبار إلى التمثيل إلى التخييل، ويكون التمثيل والتخييل هما ما ينظم مميزات نصوص الأمثال واستجابتها لحركة السياق الثقافي في دينامية من الحركة والمواراة، دون أن يغيبا عن سطح النص، إذ تظل مهمة التمثيل هدفاً من أهداف المثل وأبرز مهماته؛ فهو يبنى بوساطة نظام لغوي على وفق بنيتين: الأولى تمثل صيغة المثل، والأخرى قصته؛ أي بينما تكون القصة الممثلة في النص المنطوية على السرد والحوار والوصف، فإنَّ الصيغة ستمثل ذلك الجزء المكثف للحكاية والأصل الذي جاءت فيه ومن أجله[4].

وهذه الحكاية المتوارية خلف الصيغة السردية للمثل، لاشك، تستند في تشكيلها إلى معطيات ثقافية راهنة، وأحداث اجتماعية واقعة، وتعبّر عن مستويات العقل الجماعية وطرائق التفكير والتخييل والفعل، فهي لاتبتعد عن الموجّهات الثقافية المساهمة في إنتاج النصوص وتكوينها، لتمنحها القدرة الإبداعية، والمَلَكة البلاغية، والقيمة الأدبية لتجعل من المثل ممارسة إبداعية، وقيمة سوسيوثقافية، ولهذا جاء في تعريف المثل قديما بأنه: «وشيٌ من الكلام وجوهر اللفظ، وحَلي المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها كُل زَمَانٍ وعَلى كل لِسَانٍ، فهي أبقى من الشعر، وأشرف مِنْ الخطابة، لَمْ يسِرْ شيءٌ مسيرها، ولا عمَّ عُمُومَها، حتى قيل: أسيَرُ من مَثَل»[5]. ولهذا كان المثل دون سواه «عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب. وتقاليدها وعقائدها، وسلوك أفرادها ومجتمعاتها، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب. في رقيها وانحطاطها، وبؤسها ونعيمها، وآدابها ولغاتها»[6].

تشتغل بنية المثل السردية على وفق بعدين، بعد سكوني يتلخص كونه مرآة للشعوب التي ترسم فيها تجاربها وحضارتها لتظل ساكنة داخل بنية المثل لا تتغير ولا تتبدل ولا تتهشم صورتها رغم الزمن، فتنتقل عبر العصور حاملة معها الملامح الثقافية والاجتماعية والسياسية والفكرية...إلخ عن كل عصر، ومعبرة عنه بصدق، وناقلة لآثاره دون تزييف أو مخاتلة، وبعد ثان يتحدد بكون الأمثال ليست مستقبلاً فحسب، بل تمارس فعل التأثير، وتمتلك سلطة الخطاب المؤثرة في الجمهور، وهي تقدم الرؤى والأفكار والممارسات بشكل انسيابي للمجتمع، وقد تصادر الأمثال دورَ الأيديولوجيا في التوجيه والتحكم الفعلي في وعي الجماعة وتمارس فعلاً بليغاً في توجيه المجتمع كيفما تشاء أو كيفما حُمّلت سابقاً[7].

وبهذا تكون الأمثال نوعاً مهماً من الأنواع النثرية التي حَمَلت ثقافة المجتمع وتأثرت في حال تشكّلها بظروف البيئة الحاضنة، وعبّرت عنها بشكل ظاهر أو خفي في بنيتها القصصية وصيغتها السردية المكثفة، فأصبحت شاهداً

4 - المرجع نفسه: 26

5 - ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت- لبنان. د.ت.: مج2/ ج3: 2

6 - رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيدة، ترجمه وحققه: رمضان عبد التواب، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط1، 1971: 7

7 - توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي- دراسة تحليلية، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط1، 1988: 7

حياً على ثقافة عصر ما، وتاريخه، وعاداته، وسلوكه، ومستويات وعيه، وتفكيره، فهي تنبني وفق معطيات شعبية، وحكايات يومية، وأخبار مسرودة، ومسامرات، ومرويات، وأحداث، نتجت من عمق الواقع الاجتماعي وتلاقحت مع تلك البساطة والألفة والبداهة الحياتية وأصبحت قيمة لغوية تحمل في طياتها تعبيراً رمزياً مكثفاً يُعبَّر به عن حادثة ما أو فعل ما أو حكاية ما، وتندرج على ألسنة العامة والخاصة، وتنتقل من جيل إلى آخر، ومن مجتمع إلى ثان، محتفظة بكل قيمتها السردية والثقافية والاجتماعية والفنية التي تشكلت بوساطتها.

ومن هنا جاء الاهتمام بتأليف كتب الأمثال التي ظهر الاشتغال فيها منذ أوائل عصر الخلفاء الأمويين -بل قيل هنالك صحائف قد جمعت في الأمثال منذ نهاية العصر الجاهلي إلا أنَّه لم يصل إلينا شيء منها- ومع بدايات العصر الأموي وظهور الاهتمام بأدب المسامرة الشعبي، وأقاصيص القرآن، والكتب المقدسة، والأخبار، وسير الرسول والفتوحات، فكان مما يمتع النفس تلك القصص المرتبطة بالأمثال، حتى ارتبطت قصص الأمثال برجال معينين تلقوا ميراث الحكماء والعلماء وواصلوا أسمار البدو القدماء، وظهرت آنذاك أوائل الكتب المؤلفة في الأمثال، وحينما استقر سلطان الدولة العباسية بدأ المركز الحضاري للدولة الإسلامية ينتقل إلى العراق وفي ذلك الوقت نشأت مدارس العلماء التي اشتهرت في البصرة والكوفة، وقد ألف علماؤها كتباً في الأمثال، ليكون أقدم مؤلِف لكتاب في الأمثال هو المفضل الضبي الكوفي (ت170هـــ)، وآخران لم تصل إلينا كتبهم من معاصري المفضل الضبي[8].

كان اهتمام الذين ألفوا في الأمثال منصباً نحو شرحها من الناحية اللغوية، وبيان الأخبار المتعلقة بصدورها، فقد كانت مادة مهمة لابد منها للأديب والكاتب والخطيب والمتحدث للاستشهاد بها، كما تعد مصدراً من مصادر اللغة العربية لابد من الرجوع إليها، فضلاً عن كونها مرآة للعصر الذي قيلت فيه تعكس أموراً كثيرة عن أحوال المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتاريخية وغير ذلك كثير، كما أنَّها وسيلة للإرشاد والتوجيه؛ لأنها نتجت عن تجارب عارفين، وحوادث واقعة، وكان مرجعها النفس الإنسانية العربية، في مختلف نوازعها وأطوارها، وقد تتكرر تلك الحوادث، وهنا تستحضر الأمثال حينما نجد شبيهاً لما وقع في الماضي، وهذا ما يمنحها القوة والفعالية المؤثرة في وعي الجماعة؛ لأنها تختزل التجربة الحالية وتحيلها إلى أخرى مشابهة ماضية، كما أنَّها من خلال ذلك التعالق بين الحوادث والمشابهة بين التجارب، تربط بين وعي الماضي ووعي الحاضر، وتركن إلى التسليم بما آلت إليه نتيجة الماضي، فتسهم بسيرورة الفعل والإجراء والتفكير.

وهنا سنقف مع مجموعة من الأمثال العربية القديمة التي عبَّرت عن واقع الحياة الاجتماعية والثقافية الممثلة لأنساق الهيمنة الجندرية والتصورات الإسقاطية التي حملتها الثقافة الجماعية وحملتها تلك النتاجات الإبداعية وتناقلتها الألسن والشفاه، وأفرغت حمولاتها تلك في أوساط المجتمع لتشكل ملامح الثقافة العصرية

8 - رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، سبق ذكره: 50- 75

الراهنة بملامح ثقافية سابقة، وهكذا تستمر بنية المثل بالتلقيح والفعالية والتأثير من خلال ما تتمثله من أنساق، وتعيد التعبير عنها في كل مرة.

ولو جئنا إلى الأمثال العربية التي قيلت في المرأة وفق التصور الذكوري لنجد أنَّها لا تخرج عن القول في بذاءتها، وثرثرتها، وبخلها، ومكائدها، وحمقها، وسلاطة لسانها، وخرقها، وشؤمها، وخيانتها، وكذبها، وتهاونها، وغيرتها، وغبائها، وعدم وفائها[9]، وهي بمجملها تحاكي صورة المرأة التي في الواقع الاجتماعي وتمثلتها تلك الحكايات الشعبية واختُزلت بصيغة المثل السردية. ونذكر منها:

. أبذى من مُطَلقة[10].

ويقال في المرأة إذا طُلّقت يظهر منها البذاء[11].

. أَبَعْدَ الوَهْيِ ترقَعين وأنت مبصِرة!

وهذا المثل يضرب مثلا للرجل يأتي الخطأ على بصيرة، وتمثل به عليَ رضي الله عنه[12].

. إنَّكَ لا تدري عَلَامَ يُنْزَأُ هَرِمُكَ.

وكذلك «يروى بم يولع هرمك أي نفسك وعقلك قاله ابن السكيت ونزئ الرجل، إذا أولع نزأ ورجل منزوء بكذا مولع به. يضرب لمن أخذ فيما يكره له بعد ما أسن وأهتر به. ذكروا أنَّ بُسْرَ بن أرطأة العامري من بني عامر بن لؤي خرّف فجعل لا يسكن ولا يستقر حتى يسمع صوت ضرب فحشى له جلد فكان يضرب قدامه فيستقر وكان النمر بن تولب خرّف فجعل يقول ضيفكم ضيفكم لا يضع ابلكم ابلكم وأهترت امرأة على عهد عمر رضي الله تعالى عنه، فجعلت تقول زوجوني زوجوني، فقال عمر ما أهتر به النمر خير مما أهترت به هذه»[13].

. أبي يغزو وأمي تُحَدَّثُ

وفيه «قال ابن الأعرابي ذكروا أنَّ رجلاً قدم من غزاة فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر فجعلت امرأته تقول قتل من القوم كذا وهزم كذا وجرح فلان فقال ابنها متعجبا أبي يغزو وأمي تحدث»[14].

---

9 - صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب- ما قالته المرأة العربية وما قيل فيها، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، ط1، 1981: 147

10 - حمزة الأصبهاني، الدرَّة الفاخرة في الأمثال السائرة، حققه وقدم له ووضع حواشيه وفهارسه: عبد المجيد قطامش، دار المعارف مصر، 1972: ج1/ 75. و: أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1988: ج1/167

11 - صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 11

12 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: 128

13 - الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955: ج1/ 61

14 - المصدر نفسه: 51

. أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَة حَوْمَلَ

وأنَّ «هذه امرأة من العرب كانت تجيع كلبة لها، وهي تحرسها فكانت تربطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار وتقول التمسي لنفسك لا ملتمس لك فلما طال ذلك عليها أكلت ذنبها من الجوع»[15]. وفي هذا المثل دلالة على بخل المرأة.

. أحيا من فتاةٍ ومنْ هَدِي

وهي المرأة تهدى إلى زوجها[16].

. حَدّث حديثين امرأةً فإنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةً.

وفيه «أي زد ويروى فأربع أي كف وأراد بالحديثين حديثا واحدا تكرره مرتين فكأنك حدثتها بحديثين والمعنى كرر لها الحديث؛ لأنها أضعف فهماً، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة وقال أبو سعيد، فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة يعني العصا. يضرب في سوء السمع والإجابة»[17].

. أحمق من جَهيزة[18]

. أحمق من دُغة

وهي دُغَة بنت مغنج العجلية، ويقال: مغنج ومَعنَج بالعين، وبلغ من حُمْقِها أنَّها كانت حاملاً فضربها الطلقُ فظنت أن بطنها قد غمزها فذهبت تطلب الغائط، فلما تهيأت لذلك ولدت، فلما وضعته صاح فقامت مذعورة، فجاءت إلى أمها فقالت: يا أمَّه هل يفتح الجَعْر فاه؛ فَفُطِنت أمها فقالت: نعم، ويدعو أباه، وسألتها عن الموضع فأخبرتها به؛ فانطلقت فوجدت ولدها[19].

. أحمق من الممهورة من نعم أبيها

يُحكى أنَّ أحدهم أراد امرأة وطلب منها أنْ تمكنه من نفسها فأبت إلّا أنْ يمهرها، فأشار إلى نياق أبيها وطلب منها أن تختار أفضلهم، فاختارت واحدة فقال لها: هي لك، فوافقت ومكنته من نفسها[20].

---

15 - المصدر نفسه: 194

16 - المصدر نفسه: 228

17 - المصدر نفسه: 201

18 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 316

19 - المفضل الضبي، الفاخر في الأمثال، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، 1974: 72

20 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 1987: ج1/ 75

. أحمق من الممهورة إحدى خَدَمَتَيْها.

طلبت المهر من زوجها فأعطاها خلخالها فرضيت به[21].

. احمقي وتيسي.

أي كوني في الحمق كالتيس، هي سُبّةٌ للمرأة في الأصل، ثم يقال لمن يتكلم بما لا يشبه شيئاً[22].

. أخنثُ من هِيتٍ

وأصله، أنَّ «هذا المثل من أمثال أهل المدينة سار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حينئذ بالمدينة ثلاثة من المخنثين هيت وهرم وماتع، فسار المثل بينهم بهيت وكان المخنثون يدخلون على النساء فلا يحجبون فكان هيت يدخل على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم متى أراد فدخل يوما دار أم سلمة رضى الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندها، فأقبل على أخي أم سلمة عبد الله بن أبي أمية يقول: إن فتح الله عليكم الطائف فسل أن تنفل بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتب الثقفية، فإنَّها مبتلة هيفاء شموع نجلاء تناصف وجهها القسامة وتجزأ معتدلا في الوسامة إن قامت تثنت وإن قعدت تبنت وإن تكلمت تغنت أعلاها قضيب وأسفلها كثيب إذا أقبلت أقبلت بأربع وإن أدبرت أدبرت بثمان مع ثغر كالأقحوان وشيء بين فخذيها كالقعب المكفا (...) فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مالك؟ سباك الله! ماكنت أحسبك إلا من غير أولي الإربة من الرجال فلذا كنت لا أحجبك عن نسائي ثم أمره بأن يسير إلى...»[23].

. أخيلُ من واشمةٍ استها

وفيه، «قال أبو عمرو هي امرأة وشمت فرجها فاختالت على صواحباتها»[24].

. أخرقُ من ناكثةٍ غزلِها

---

21 - المصدر نفسه: ج1/ 75

22 - المصدر نفسه: ج1/ 86

23 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 260. ومثله: أخنثُ من دلال: فهو أيضا من مخنثي المدينة واسمه نافذ وكنيته أبو يزيد، وهو ممن خصاه ابن حزم الأنصاري أمير المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك؛ وذلك أنه أمر ابن حزم عامله أن احص لي مخنثي المدينة، فتشظى قلم الكاتب فوقعت نقطة على ذروة الحاء فصيرتها خاء فلما ورد الكتاب المدينة ناوله ابن حزم كاتبه، فقرأ عليه اخص المخنثين، فقال له الأمير لعله حصى بالحاء، فقال الكاتب إنَّ على الحاء نقطة مثل تمرة ويروى مثل سهيل فتقدم الأمير في إحضارهم ثم خصاهم، وهم طويس ودلال ونسيم السحر ونومة الضحا وبرد الفؤاد وظل الشجر، فقال كل واحد منهم عند خصائه كلمة سارت عنه فأما طويس فقال: ما هذا إلا خِتَان أعيد علينا، وقال دلال: بل هذا هو الخِتان الأكبر وقال نسيم السحر: بالخصاءِ صرت مخنَّثاً حقاً وقال نومة الضحا: بل صرنا نساء حقاً، وقال برد الفؤاد: استرحنا من حمل ميزاب البول، وقال ظل الشجر: ما يصنع بسلاح لا يستعمل ومر الطبيب الذي خصاهم بابن أبي عتنيق، فقال له أنت خاصي دلال أما والله إنْ كان ليجيد.. ومضى الطبيب فناداه ابن أبي عتيق أنْ ارجع فرجع فقال إنَّما عنيت خفيفة لا ثقيلة قالوا وكان يبلغ من تخنث دلال أنه كان يرمي الجمار في الحج بسكر سليماني مزعفراً مبخراً بالعود المطري فقيل له في ذلك فقال لأبي مرة عندي يد فأنا أكافئه عليها قيل وما تلك اليد قال حبب لي الابنة قولهم: أخنث من مصُفّر استهِ.... إلخ. الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 261- 262.

24 - المصدر نفسه: ج1/ 263

و«يقال من ناقضة غزلها، وهي امرأة كانت من قريش يقال لها أم ريطة بنت كعب ابن سعد بن تيم بن مرة، وهي التي قيل فيها خرقاء وجدت صوفا، والتي قال الله عز وجل فيها ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثا قال المفسرون كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جواريها أن يغزلنَّ ثم ينقضنَّ وتأمرهنَّ أن ينقضنَّ ما فتلنَّ وأمررنَ فضرب بها المثل في الخرق»[25].

. أخبِرها بِعَابها تَخْفَر

وفيه، أنَّ «العاب العيب. يضرب للمرأة الجريئة أي أخبرها بعَيْبها لتكسر من جراءتها»[26].

. شَرُّ الناسِ من مِلْحُهُ على رُكبَتِهِ

وأصله، «إنّ العرب تسمي الشحم ملحا لبياضه، وتقول أملحت القدر إذا جعلت فيها الشحم وعلى هذا فسر قوله: لا تلمها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب. يعني من نسوة همها السمن والشحم فكان معنى المثل شر الناس من لا يكون عنده من العقل ما يأمره بما فيه محمدة إنما يأمره بما فيه طيش وخفة وميل إلى أخلاق النساء وهو حب السمن والملح يذكر ويؤنث»[27].

. أشغَلُ منْ ذاتِ النّحْيَينِ

و «هي امرأة من بني تيم الله بن ثعلبة كانت تبيع السمن في الجاهلية فأتاها خوَّات بن جبير الانصاري يبتاع منها سمنا فلم ير عندها أحدا وساومها فحلت نحيا فنظر إليه ثم قال امسكيه حتى أنظر إلى غيره فقالت حُلَّ نِحْيا آخر ففعل فنظر إليه، فقال أريد غير هذا فأمسكيه ففعلت فلما شغل يديها ساورها فلم تقدر على دفعه حتى قضى ماراد وهرب»[28].

. إنَّ النساء لَحمٌ على وَضَم

وفيه أنَّ «الوضم ما وقى به اللحم من الأرض من بارية أو غيرها وهذا المثل يروى عن عمر رضى الله عنه حين قال لا يخلُوَنَّ رجل بِمُغِيَبةٍ إنَّ النساء لحم على وضم»[29].

. إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح.

---

25 - المصدر نفسه: ج1/ 266

26 - المصدر نفسه: ج1/ 247

27 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 383

28 - المصدر نفسه: ج1/ 391

29 - المصدر نفسه: ج1/ 21

وقد «قاله الفرزدق في امرأة قالت شعرا»[30]. وليس لهذا المثل تفسير مقنع إلّا القمع وسطوة المجتمع الذكوري، فالشعر من نصيب الذكور فقط، ولا مكان للمرأة فيه.

. أشأم من البسوس.

والبسوس «هي بسة بنت منقذ التميمية»[31]

. أشأم من رغيف الحولاء

و «هي امرأة خبازة كانت في بني سعد بن زيد بن مناة، فمرت بخبز فتناول رجل رغيفاً فقالت ما أردت بهذا إلا أبس فلان- تعني رجلاً كانت في جواره، فثار القوم فقتل بينهم ألف إنسان»[32].

. أشأم من منشم: ويروى مشأم، ويروى: من عطر مَنْشَم

وهي امرأة عطارة غمسوا أيديهم في عطرها وتحالفوا بالاستماتة في الحرب، وقيل كانت تبيع الحنوط وسموه عطراً لأنه طيب الموتى، وقيل: هي امرأة افترعها زوجها صبيحة عرسها فأدماها فقيل لها: بئس ما عَطَرِكِ زوجك! وقيل: المنشم شيء يكون في سنبل العطر يسمى قرون السنبل، وهو سم ساعة قالوا: وهو البيش، وقيل: المنشم الشر بعينه مأخوذ من شَّم في الشر إذا أخذ فيه[33].

. أشبه فلان أُمَّه

يضرب لمن يضعف ويعجز[34].

. أطول من طنب الخرقاء

لأنَّ الخرقاء لا تعرف مقادير الإطناب فتطولها[35].

. أظنُّ ماءكم هذا ماء عِناق

---

30 - المصدر نفسه: ج1/ 64

31 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج1/ 176-177. والحكاية معروفة عن البسوس والحرب التي قامت بعدها.

32 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج1/ 182

33 - المصدر نفسه: ج1/ 184

34 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 369

35 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 19

وأصله «كان من حديثه أنّ رجلاً بينا هو يستقي وبيته تلقاء وجهه، فنظر فإذا هو برجل معانق امرأته يقبلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعا لا يشك في ما رأى، فلما رأته امرأته جعلت الرجل في خالفة البيت بين الخالفة والمتاع، فنظر يمينا وشمالا فلم ير شيئا، وخرج فنظر في الأرض فلم ير شيئا، فكذب بصره، فقالت المرأة كأنها تريه أنها قد استنكرت من أمره شيئا: ما دهاك يا فلان؟ أرعبك شيء؟ فكتمها الذي رأى، ومضى لحاجته، فلما كان في الوِردِ الثاني قالت: يا أبا فلان، هل لك أن اكفيك السقي وتودع اليوم فإني قد أشفقت عليك؟ قال: نعم إن شئت، فأقام في المنزل، فانطلقت تسقي وتحينت منه غفلة فأخذت العصا ثم أقبلت حتى تفلق بها رأسه فشجته، فقال: ويلك! مالك؟ وما دهاك؟ قالت: وما دهاني يا فاسق؟ أين المرأة التي رأيتها معك تعانقها؟ فقال: لا، والله ما كانت عندي امرأة، وما عانقت اليوم امرأة، قالت بلى أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء، فتحالفا فلما أكثرت قال: إن تكوني صادقة فإنَّ ماءكم هذا ماء عِناق. يضرب مثلاً في الدواهي»[36].

. أعجبُ من أُمّ ماَطِلٍ

هي امرأة: فَرِكتْ زوجَها فقتلتْ نفسها[37].

. إحدى نَوادِهِ البَكْرِ

يضرب مثلا للمرأة الجريئة السليطة[38]

. أعطِني حَظّي مِنْ شوايةِ الرَّضْف

وفيه، أنَّ «هذا مثل قالته امرأة كانت غريرة، وكان لها زوج يكرمها في المطعم والملبس، وكانت قد أوتيت حظا من جمال فحسدت على ذلك، فابتدرت لها امرأة لتشينها، فسألتها عن صنيع زوجها، فأخبرتها بإحسانه إليها، فلما سمعت ذلك قالت: وما إحسانه، وقد منعك حظك من شُوَاية الرضف؟ قالت: هي من أطيب الطعام، وقد استأثر بها عليك فاطلبيها منه، فأحبت قولها لغرارتها، وظنت أنها قد نصحت لها، فتغيرت على زوجها، فلما أتاها وجدها على غير ما كان يعهدها، فسألها ما بالها، قالت: يا ابن عمّ تزعم أني عليك كريمة، وأنَّ لي عندك مزية، كيف وقد حرمتني شُوَاية الرَّضْف؟ بَلّغْني حظي منها، فلما سمع مقالتها عرف أنها قد دُهِيتْ، فأصاخ وكره أن يمنعها، فترى أنَّه إنَّما منعها إياها ضناً بها، فقال نعم وكرامة، أنا فاعل الليلة إذا راح الرعاء، فلما راحوا وفرغوا من مهنهم ورَضَفُوا غَبُوقهم دعاها فاحتمل منها رضفة فوضعها فوق كفها، وقد كانت التي أوردتها قالت لها: إنك ستجدين لها سخنا في بطن كفك فلا تطرحيها فتفسد، ولكن عاقبي بين كفيك ولسانك، فلما وضعها في

36 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 443

37 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 77

38 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 25

كفها احرقتها فلم ترْم بها، فاستعانت بكفها الأخرى فأحرقتها، فاستعانت بلسانها تبردها به فاحترق، فمجلت يديها، ونقطت لسانها، وخاب مطلبها، فقالت: قد كان عيّ وشيبّ يَصْريني عن شر، فذهبت مثلاً»[39].

. أعيتني بأشُرٍ فكيف بدُرْدُر

وأصله، «كانت عند رجل امرأة حمقاء فولدت له غلاماً، فأحبه، فكان يقَّبله ويقول: وا بابي دُرْدُرُهُ! ولم تنبت أسنانه بعد، وكانت امراته حسنة الثغر، فكان إذا قبَّل ابنه وقال: وا بأبي دُرْدُرُهُ، ظنت أنَّ الدُرْدُرَ أحب إليه من الأسنان، فحطمت أسنانها، فلما قال: وا بأبي دُرْدُرُهُ، قالت: يا شيخ كلنا ذو دُرْدُر، فقال: أعييتِني بأُشُر فما بالك بدُرْدُرٍ»[40].

. أكْذَبُ مِن السَّالِئَةِ

أي «لأنها إذا سَلأَت السمن كذبت مخافة العين، وكذبها أنها تقول: قد ارْتَجَن، قد احترق، والارتجان: أن لا يخلص سمنها»[41].

. أقْبَحُ هَزِيلَيْنِ الفَرَسُ والمرأَةُ

يحكى أنَّ عمرو بن الليث عُرِض عليه الجند يوما يعضى فيه أرزاقهم، فعرض عليه رجل له فرسا عجفاء، فقال عمرو: هؤلاء يأخذون دراهمي ويُسَّمنون بها أفَالَ نسائهم، فقال الرجل: لو رأى الأمير كَفَلَتَها لاستسمن كَفَلَ دابتي، فضحك عمرو، وأمر له بِصِلَةٍ، وقال: سَمّنْ بها مركوبيك[42].

. ألزِموا النساء المهانة، نعم لهو الحُرَّة المِغزَلُ

مما قاله أكثم بن صيفي[43].

. إلَّا حَظِيَّةً فَلا أَلِيَّةً

---

39 - المصدر نفسه: ج2/ 36

40 - السدوسي، كتاب الأمثال، تحقيق: رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1982: 82. و: الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج1/ 257

41 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 167

42 - المصدر نفسه: ج2/ 124

43 - المفضل الضبي، الفاخر في الأمثال، سبق ذكره: 263-264، الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 265. وجاء فيه (الغرة) بدلا من (الحرة).

وفيه، أنَّ «أصله في المرأة تصلف عند زوجها، فتتحبب إليه ما أمكنها؛ لتنال الحظوة عنده بالتحبب إليه إذا أخطأته الحظوة في المحبة منه»[44]. وعليه «يقال لها: إن اخطأتك الحظوة فلا تألي أن تتودي إليه»[45].

. أمحَلُ من تَعْقَادِ الرَّتَم.

وأصله «إنَّ العرب من عادتها إذا أراد أحدهم سفراً أنْ يعقد خيطا في شجرة. ويعتقد فيه أنه إن أحدثت امرأته حدثا انحلَّ ذلك الخيط، وكانوا يسمونه الرَّتَم والرُّتْمة. وذَكر ابن الأعرابي، أنَّ رجلا من العرب أراد سفرا فأخذ يوصي امرأته، ويقول: إياك أن تفعلي وأياك، فإني عاقد لك رتمة بشجرة، فإن أحدثتِ حدَثا انْحلتْ، فقال له الشاعر: هل ينفعك اليوم إن همَّتْ بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرَّتَمْ!»[46].

. أَنكَحْنَا الفَرَا فَسنَرى

وأصله، «قال رجل لأمرته حين خَطَب إليه ابنته رجلٌ وأبى أن يزوجه، فرضيت أمها بتزويجه فغلبت الأبَ حتى زوجها منه بكره، وقال: أنكحنا الفرا فسنرى، ثم أساء الزوجُ العشرة فطلقها»[47].

. إنكنَّ صواحب يوسف

وهو من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني عليه السلام بذلك أنهنَّ مثلهنَّ في إظهار خلاف ما في الباطن[48].

. إنّما نُعطي الذي أُعْطِنا

أصله أنَّ رجلاً مئناث، فولدت له امرأته جارية فصبر، ثم ولدت له جارية فصبر، ثم ولدت له جارية فهجرها وتحول عنها إلى بيت قريب منها، فلما رأت ذلك انشدت تقول: ما لأبي الذلفاء لا يأتينا، وهو في البيت الذي يلينا، يغضب إن لم نلد البنينا، وإنما نعطي الذي أُعطينا[49].

. إنَّ الحَماةَ أُولِعَتْ بالكَنَّهْ وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّهْ

---

44 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 67

45 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 20.

46 - حمزة الأصبهاني، الدرَّة الفاخرة، سبق ذكره: ج2/ 388

47 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 335

48 - صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 39- 40

49 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 64

و«الحماة: أم زوج المرأة، والكنة: امرأة الابن وامرأة الأخ أيضاً، والظنة: التهمة، وبين الحماة والكنة عداوة مستحكمة. يضرب في الشر يقع بين قوم هم أهلٌ لذلك»[50].

. صُغْرَاهنَّ شُرَّاهُنَّ

و«أول من قال ذلك امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد، وكان لها زوج يقال له الشَّجي، وخليل يقال له الخَلِّي، فنزل لقمان بهم، فرأى هذه المرأة ذات يوم انتبذت من بيوت الحي، فارتاب لقمان بأمرها، فتبعها، فرأى رجلاً عرض لها ومضيا جميعاً وقضيا حاجتهما، ثم أن المرأة قالت للرجل: إني أتَمَاوتُ فإذا أسندوني في رجمي فأتني ليلاً فأخرجني ثم اذهب إلى مكان لا يعرفنا أهله، فلما سمع لقمان ذلك قال ويل شجي من الخلي، فأرسلها مثلاً، ثم رجعت المرأة إلى مكانها وفعلت ما قالت، فأخرجها الرجل وانطلق بها أياماً إلى مكان آخر، ثم تحولت إلى الحي بعد برهة، فبينا هي ذات يوم قاعدة مرت بها بناتها، فنظرت إليها الكبرى فقالت: أمي والله، قالت الوسطى: صدقتِ والله، قالت المرأة: كذبتما ما أنا لكما بأم، ولا لأبيكما بامرأة، فقالت لهما الصغرى: أما تعرفان محياها، وتعلقت بها وصرخت، فقالت الأم حين رأت ذلك: صغراهنَّ شراهنّ....»[51].

. إنَّ سوادَها قَوَّمَ لي عِنَادَها

و«السواد: السرار، وأصله من السَّواد الذي هو الشخص؛ وذلك أنَّ السرار لا يحصل إلا بقرب السواد من السواد، وقيل لابنة الخُسِّ وكانت قد فجرت: ما حملكِ على ما فعلتِ؟ قالت: قرب الوِساد وطول السواد. وزاد فيه بعضُ المُجَّان: وحُبُ السّفَاد»[52].

. أنَّ كَيْدَهُنّ عظيم

من القرآن الكريم، مقتبس من قوله تعالى: {إِنَّهُ مِن كَيدِكُنَّ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيم28}[53].

. إنَّ المَنَاكِحَ خيرُها الابكارُ

المناكح: جمع المَنْكُوحة[54].

. إنْ كنتِ غَضْبَى فَعَلى هَنِكِ فاغْضَبِي

---

50 - المصدر نفسه: ج11/1

51 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 398- 399

52 - المصدر نفسه: ج1/ 14

53 - يوسف: 28. وللمزيد مراجعة: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 40

54 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج61/1

وفي أصله «يقال: زَنَتْ ابنة رجل من العرب وهي بكر، فناداها أبوها يا فلانة، فقالت: إني غَضْبى، قال لها أبوها: ولِمْ؟ قال: إني حُبَيلى، قال: إن كنتِ غضبى، أي هذا ذنبك»[55].

. تَبَاعَدَت العَمَّةُ عن الخَالَةِ

أي العمة خير من الخالة؛ يضرب في التفاضل بين الرجلين[56]

. تَجْمَعينَ خِلابَة وصُدُودا

يضرب لمن يجمع بين خصلتي شر[57].

. تَحْسَبُها حَمْقاء وهي بَاخِسٌ

أي تظن أنك تخدعها لحمقها فإذا هي تخدعك، وتهضمك[58].

. تَلْذَعُ المرأةُ وتَصِيءُ.

أي تصوّت والمعنى أنَّها تظلم بعلها وتزعم أنَّه يظلمها[59].

. تَنْهانا أُمنَا عنِ الغَيّ وتَغدو فيه.

وأصله «أنَّ امرأة كانت تُؤاجر نفسها، وكانت لها بنات تخاف أن يأخذنَّ أخذها، فكانت إذا غدت في شأنها تقول لهنَّ احفظنَ أنفسكنّ، وإياكنّ أن يقربكنّ أحد، فقالت إحداهنّ: تنهانا أمّنا عن الغي وتغدو فيه»[60].

. جاء يَجُرُ بَقَرَهُ

يَجرُ بَقَرَهُ، «أي عياله، كنى عن العيال بالبقر؛ لأنَّ النساء محلُ الحرث والزرع، كما أنَّ البقر آلة لهما»[61].

. جَرَحَهُ حيثُ لا يَضَعُ الرَّاقِي أنفَهُ.

---

55 - المصدر نفسه: ج1/ 55.

56 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 18

57 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 142.

58 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 21

59 - المصدر نفسه: ج2/ 31

60 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 220

61 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 164

وقد «قالته جندلة بنت الحارث تحت حنظلة بن مالك، وهي عذراء وهو شيخ فلم يستطع افتضاضها، فخرجت ليلة فوثب عليها مالك بن عمرو بن تميم فافتضها فصاحت، فقيل لها في ذلك، فقالت: لُسعتُ، فقيل لها أين؟ فقالت ذلك»[62].

. **حانِيَةٌ مُخْتَضِبَةٌ**

وفيه، «أنَّ امرأة مات زوجها ولها ولد، فزعمت أنَّها تحنو على ولدها ولا تتزوج، وكانت في ذلك تخضب يديها، فقيل لها هذا القول»[63].

. **تَسْأَلُني أُمُ الخِيَارِ جَمَلاً يمشي رُوَيداً ويَكُونُ أَولاً**

يضرب في طلب ما يتعذر[64].

. **تَشْتَهي وتَشْتَكي**

وفيه، «أي تحبُ أن تأخذ، وتكره أن يؤخذ منك»[65].

. **جَفَّ حِجْرُك وطابَ نَشْرُكِ. أكلتِ دَهَشاً وحَطَبْتِ قِمْشاً**

وفيه، «قال يونس بن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أنَّ امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها، فأحسنت تزويرهما، فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها: جفَّ حجرك وطاب نشرك، فسُرّت الجارية بما قالت عمتها، وقالت لابنة أختها: أكلتِ دهشا وحطبت قمشا، فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها، فانطلقت بنت الأخ إلى أمها مسرورة، فقالت لها أمها: ما قالت لك عمتك؟ فقالت: قالت لي خيرا ودعت لي، قالت: وكيف قالت لك؟ قالت: قالت جف حجرك وطاب نشرك، قالت: أي بنية، ما دعت لك بخير، ولكن دعت بأن لا تشمي ولداً أبداً فيبل حجرك ويغير نشرك، وانطلقت الأخرى إلى أمها، فقالت لها أمها: ما قالت لك خالتك؟ قالت: وما عسى أن تقول لي؟ دعت الله علي، وقالت: وكيف قالت لك؟ قالت: قالت أكلتِ دهشاً وحطبت قمشاً، قالت: بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك في المال ويقمشوك حطباً»[66].

. **خُضَلَّةٌ تَعِيبُها رَصوف**

---

62 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 50.

63 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 199.

64 - المصدر نفسه: ج1/ 141. ومثله: تسألني برامَتيْن سَلجما. رامة موضع بقرب البصرة. والسلجم أصله شلجم وقالوا: السوس لهذا البلد. يضرب لمن يسأل شيئا في غير موضعه. المصدر نفسه: ج1/ 124. و: أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 213.

65 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 144.

66 - المصدر نفسه: ج1/ 173.

وفيه، أنَّ «الخضلة: المرأة الناعمة التارَّة، والرَّصُوف: المرأة الصغيرة الفرج، ويقال الضيقة الفرج حتى لا يكون للذكر فيه مسلك وهي مثل الرتقاء، والرضف ضم الشيء بعضه إلى بعض، يعني أنَّ هذه الرَّصُوف المعيبوبة تعيب هذه الناعمة، يضرب لمن يعيب الناس وبه عيب»[67].

. خيرٌ قَليلٌ وفَضحتُ نَفسي

وفيه «إنَّ أول من قال ذلك فاقرة امرأة مُرَّة الاسدي، وكانت من أجمل النساء في زمانها، وأنَّ زوجها غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها حامياً كان يرعى ماشيتها، فلما همت به أقبلت على نفسها، فقالت يا نفس لا خير في الشرة، فإنَّها تفضح الحرة، وتحدث العرة، ثم أعرضت عنه حيناً، ثم همت به فقالت: يا نفس موتة مريحة، خير من الفضيحة، وركوب القبيحة، وإياك والعار، ولبوس الشنار، وسوء الشعار، ولوم الدثار، ثم همت به وقالت: إن كانت مرة واحدة، فقد تصلح الفاسدة، وتكرم العائدة، ثم جسرت على أمرها فقالت للعبد: احضر مبيتي الليلة، فأتاها فواقعها، وكان زوجها عائفاً مارداً، وكان قد غاب دهراً ثم أقبل آئباً، فبينا هو يطعم إذ نعب غراب فأخبره أنَّ امرأته لم تفجر قط، ولا تفجر إلا تلك الليلة، فركب مرة فرسه وسار مسرعاً رجاء أن هو أحسها أمنها أبداً، فانتهى إليها وقد قام العبد عنها، وقد ندمت وهي تقول: خير قليل وفضحت نفسي، فسمعها مرة فدخل عليها وهو يرعد لما به من الغيظ، فقالت له: ما يرعدك؟ قال مرة ليعلم أنه قد علم: خير قليل وفضحت نفسي، فشهقت شهقة وماتت»[68].

. خيرُ متاع الدنيا المرأة الصالحة

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا متاع. وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[69].

. خَيرُ النساءِ البَرزةُ الحَييَّةُ، وشرهُنَّ الخُبَأَةُ الطُّلَعَةُ التي تختبئ وتَطَلَّعُ[70].

. خيرُ النساء امرأة إن نظرتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غِبت عنها حفِظتك في نفسها وما لها

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[71].

. دَعْني من هِند فلا جَدِيْدَها وَدَّعَتْ ولا خَلَقَهَا رُقَعَتْ[72].

---

67 - المصدر نفسه: ج1/ 246

68 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 241- 242

69 - مسلم، صحيح مسلم، سبق ذكره: ج2/ ب17/ ح 1467: 1090. و: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 71

70 - السدوسي، كتاب الأمثال، سبق ذكره: 77

71 - الزمخشري، تفسير الكشاف، سبق ذكره: ج5/ 235. و: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 71

72 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 79

. ذلَّ قومٌ أسندوا أمرهم إلى امرأة

من كلام أبي بكر الصديق رضى الله عنه[73].

. ذَنْبي ذَنْبُ صُحَرٍ

وفيه «خرج لقمان العادي مغيرا مع ابنه لقيم فغنم لقيم وأخفق هو فاتخذت بنته صحر طعاماً له مما رجع به أخوها فلطمها لطمة ماتت عنها وقال: إنما عيرتني بالإخفاق، وقيل: تزوج امرأة وكان شديد الغيرة فأحلها في رأس جبل فخانته فرمى بها من أعلاه وانحدر مغضباً فتلقته صحر فقال: أو أنت أيضاً من النساء! ولطمها فماتت؛ يضرب لمن يساء إليه وهو بريء»[74].

. رُبَّ حَمقاءَ مُنْجِبَة

انجبت المرأة: ولدت نجيباً[75].

. الرجال قوامون على النساء

من سورة النساء يعني أنَّ الرجال يقومون على النساء قيام الولاة على الرعية[76].

. رفقا بالقوارير

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حديث أنجشة، في رواية البراء بن مالك› رويدك، رفقا بالقوارير› أراد النساء، شبههنَّ بالقوارير من الزجاج؛ لأنه يُسرع إليهنَّ الكسر، وكان أنجشة يحدو وينشد القريض والرجز. فلم يأمن أن يصيبهنَّ، أو يقع في قلوبهنَّ حداؤه، فأمره بالكف عن ذلك: وفي المثل الغناء رقية الزنا[77]

. رُوَيد الغَزوَ يَنْمَرِقُ

---

73 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 450

74 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 86- 87

75 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 308.

76 - النساء: 34. و: الزمخشري، تفسير الكشاف، سبق ذكره: ج5/ 234. و: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 77

77 - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ، ط1، 1963: ج4/ 39. و: محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1992: ج10/ 48- 49

وفيه، أنَّ «هذه مقالة امرأة كانت تغزو، وتسمى رَقَاشِ، من بني كنانة، فحملت من أسير لها، فذكروا لها الغزو، فقالت رويد الغزو، أي أمهلوا الغزو، حتى يخرج الولد (...) ذكر المفضل أنّ امرأة من طيء يقال لها رقاش، فكانت تغزو بهم ويتيمنون برأيها؛ وكانت كاهنة لها حزم ورأي، فأغارت طيء وهي عليهم على أياد بن نزار بن معد يوم رحى جابر، فظفرت بهم وغنمت وسبت، فكان فيمن أصابت من أياد شاب جميل، فاتخذته خادماً، فرأت عورته فأعجبها فدعته إلى نفسها فحملت فأتيت في إبان الغزو، فقالوا هذا زمان الغزو فاغزي إن كنت تريدين الغزو، فجعلت تقول: رويد الغزو ينمرق، فأرسلتها مثلاً، ثم جاءوا لعادتهم فوجدوها نفساء مرضعاً قد ولدت غلاماً»[78].

. صَكّا ودِرْهَماكَ لكَ

وفيه «قال المفضل: إنّ امرأة بغياً كانت تؤجر نفسها من الرجال بدرهمين لكل من طلبها، فاستأجرها يوما رجل بدرهمين، فلما جامعها أعجبها جماعه وقوته...، فجعلت تقول صُكَّ صكاً ودرهماك لك»[79].

. صَلْعَاء مُتْئِمٌ

الصلعاء الداهية الشديدة، ومئتم التي ولدت اثنين في بطن، والمعنى أنَّها داهية تجر الدواهي[80].

. مَنْ لَمْ تَخُنْه نِسَاؤهُ تَكلَّمَ بِملءِ فيهِ[81]

. المرأةُ فِرَاشٌ فاسْتَوْثِروهُ[82]

. المرأةُ السُّوء غُلٌّ من حَديدٍ[83]

. في الصيف ضَيّعْتِ اللبَن

وفيه أنَّ هذا المثل «في الأصل خوطبت به امرأة، وهي دَخْتَنوس بنت لقيط بن زرارة كانت تحت عمرو بن عمر بن عدس. وكان شيخاً كبيراً ففركته فطلقها، ثم تزوجها فتى جميل الوجه، وأجدبت فبعثت إلى عمرو

78 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 288

79 - المصدر نفسه: ج1/ 407

80 - السدوسي، كتاب الأمثال، سبق ذكره: 76. و: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 90

81 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 329

82 - المصدر نفسه: ج2/ 330

83 - المصدر نفسه: ج2/ 330

تطلب منه حلوبة، فقال عمرو: ‹في الصيف ضيعت اللبن› فلما رجع الرسول وقال لها ما قال عمرو ضربتْ يدها على منكب زوجها، وقالت: ‹هذا ومذاقُه خير› تعني هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو»[84].

. ضَلَّ حِلْمُ امرَأةٍ فأيْنَ عَيْنَاهَا

وهو «أي هَبْ أن عقلها ذَهَب فأين بَصرُها»[85].

. طاعَةُ النسَاء نَدَامَةٌ

أي طاعتك النساء، والطاعة لا تكون نفس الندامة، ولكن سببها، كأنه قال: طاعتُكَ النساءَ مُورثة للندامة. يضرب في التحذير عواقب طاعتهنَّ فيما يأمرنَّ[86].

. عادَتْ لِعِتْرِها لَمِيسُ

وفيه «العتر: الأصل، ولميس: اسم امرأة. يضرب لمن يرجع إلى عادة سوء تركها»[87].

. عَارُ النِساءِ باقٍ[88].

. الَجيزةُ أَحَدُ الوَجْهَينِ

كان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يرغبون في المرأة ذات العجيزة الوافرة، ويعدونها من علامات الجمال[89].

. أسْرَعُ منْ نِكاح أُم خَارِجَة

هي عمرة بنت سعد بن عبد الله، كان يأتيها الخاطب، فيقول: خِطْبٌ، فتقول: نِكْحٌ[90].

. أشْبَقُ من حُبَّى

---

84 - المصدر نفسه: ج2/ 68

85 - المصدر نفسه: ج1/ 419

86 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 435

87 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 49- 50

88 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 55

89 - المصدر نفسه: ج2/ 55. و: صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 93

90 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج1/ 348.

وهي امرأة مزواج تزوجت على كبرها فتى شاباً ولها ابن كهل، وكانت نساء المدينة يسمونها حواء أم البشر؛ لأنَّها علمتهنَّ ضروب الجماع ولقبتها بألقاب..[91].

. أقوَدُ منْ ظُلمَة

هي امرأة من هذيل فجرت في شبابها حتى عجزت ثم قادت حتى أقعدت..[92]

. عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً

وفيه «أول من قال ذلك الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وكان طلق بعض نسائه من بعد ما أسن، فخلف عليها بعده رجل كانت تظهر له من الوجد به مالم تكن تظهر للحارث، فلقي زوجها الحارث فأخبره بمنزلته منها، فقال له الحارث: عش رجبا تر عجباً، كأنه قال عش رجباً بعد رجب»[93].

. على جَارَتي عِقَقٌ وليْسَ عليَّ عِقَقٌ

العِقة: ذؤابة، قالته امرأة كانت لها ضرَّة، وكان زوجها يكثر ضربها، فحسدت ضرتها على أن تضرب[94].

. غَيْرَةُ المرأة مِفتَاحُ طَلاقها[95].

. قَدْ قَلَيْنا صَفيركم

وأصله أنَّ رجلاً كان يعتاد امرأة. فكان يجيء، وهي جالسة مع بنيها وزوجها فيصفر لها، فتخرج عجزها من وراء البيت، وهي تُحدِثُ ولدها فيقضي الرجل حاجته...[96].

. كُلُ شيءٍ مَهَهٌ ومَهَاهٌ ما خَلا النساءَ وذِكرَهُنَّ

المهه والمهاه الشيء الحقير؛ أي إنَّ الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمه، فيمتعض حينئذ، فلا يحتمله، وقيل المهاه والمهه الجمال والطراوة، أي كل شيء جميل إلا ذكر النساء[97].

---

91 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج1/ 186

92 - المصدر نفسه: ج1/ 287

93 - المفضل الضبي، الفاخر في الأمثال، سبق ذكره: 102. و: الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 16

94 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 32

95 - المصدر نفسه: ج2/ 67

96 - المصدر نفسه: ج2/ 98

97 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 227. و: الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 132

. لاتَعِظيني وتَعَظْعَظي

أي لا توصيني وأوصي نفسك[98].

. لُبُّ المرأةِ إلى حُمْقٍ[99].

. ما لِمَخْضُوبِ البَنَانِ يَمِيْنٌ

يضرب في قلة الثقة بالنساء[100].

. ما أَمْرُ العَذرَاءِ في نَوَى القومِ

يضرب في ترك مشاورة النساء في الأمور[101].

. المرأة ريحانة وليست بقهرمانة[102]

. النساءُ حَبَائلُ الشيطانِ[103].

. إذا رأى احدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأتِ أهله، فإنَّ البُضْع واحد، ومعها مثل الذي معها

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[104].

لقد قدمتْ لنا الأمثال العربية صورة جليّة، واضحة، ومعبرة عن بنية المجتمع العربي منذ عصر ما قبل الإسلام إلى العصرين الأموي والعباسي مروراً بصدر الإسلام وعصر النبي والخلفاء الراشدين. وكانت هذه الصورة تتلخص بأنَّ المرأة هي ما اجتمع فيه الحمق، والبلاهة، والبخل، والسذاجة، والجنس، والمكر، والحيلة، والخداع، وما إلى ذلك من صفات غير محمودة، بينما تسنَّم الرجل ذروة القيم الاجتماعية وظهرت صورته بالقوة، والكرم، والسخاء، والصبر، والشدة، والرعاية، والحكمة، والعقل، والرجاحة، والفحولة.. وإلخ.

---

98 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 213

99 - المصدر نفسه: ج2/ 199

100 - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، سبق ذكره: ج2/ 307

101 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 274

102 - صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 132

103 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: ج2/ 340

104 - صلاح الدين المنجد، أمثال المرأة عند العرب، سبق ذكره: 20. و: الترمذي، الجامع الكبير، سبق ذكره: مج2/ ب9/ ح 1158: 452. (*)من ذلك مثلاً (أ بعد الوهي ترقعين وأنت مبصرة) و(تجمعين بين خلابة وصدوداً) و(عادت لعترها لميس). أما إذا كانت بصيغة المذكر، فلا بد أن يكون انتقاص المرأة حاضراً في مَضرب المثل.

ومن ذلك ما وجدنا من أمثال قدمت لنا صورة المرأة المسكونة بالجنس أو التزويج حتى في أواخر سني عمرها، تظل مشدودة إلى ذلك الفعل الشاغل لذهنها، ومن المؤكد أن يكون ما اهتر به النمر/ الفحل/ الذكر هو خير ما تهتر به امرأة؛ لأن المجتمع قد تقبَّل أن تكون المرأة غير مبالية بما يشغل ذهن الرجل، وإنما بما يشغل فكرها وتولع به كالجنس مثلاً.

فإذا كان الرجل قد أُولع بالضرب/ القتال/ الحرب/ البطولة، وآخر قد اهتر وأولع بالكرم والضيافة والسخاء، فإنَّ المرأة لا تولع إلا بما هو دون وسافل وجنسي، وهذا إنَّما يعزز الاعتقاد أنَّ ما يخرف به المرء هو نتيجة انشغال العقل الواعي فيكون الخرف محاولة لإشباع تلك الرغبات التي ملأت ذهن الإنسان، وبهذا يكون الرجل لشدة ضربه واستمتاعه بصوت الضرب والقتال والحروب، فإنَّ عقله اللاواعي سيكون مسكوناً بذلك الصوت الذي يشبع روحه ووجدانه، والحال نفسها مع الرجل الذي يشغل عقله الكرم واقراء الضيف، فإنه يظل هاجس الوعي واللاوعي، وهكذا فإنَّ المرأة لشدة انشغال عقلها بالجنس والتزويج فلا يجد المجتمع ما يصور به حال تلك المرأة عند الخرف، إلا فيما يدور حول المعنى نفسه من التزوج والجنس والاتباع للرجل، وهذا إنَّما يعرض لنا حال المجتمع الذي عبرت عنه تلك الأمثال عبر حكايات تقف خلف صيغها وبنياتها السردية، وتقدم لنا في الوقت نفسه صورة لحال المرأة العربية، وهي مهووسة بالتزويج والجنس واللذة.

كما أننا نجد المرأة وقد أخرجت عن منطقة الاهتمامات الذكورية، أو المنطقة المحرَّمة فحوليا؛ إذ لا يمكن للمرأة أن تقتحم ذلك العالم مطلقاً؛ لأنَّ إخراج المرأة عن دائرة الاهتمامات الذكورية أمر بات من أولويات المجتمع المجندر، ولهذا فإنَّ حديث المرأة عن بطولات زوجها في الغزو ستكون خارجة عن إطار المشاركة والاهتمام والمعرفة؛ لأنَّها بعيدة عن دائرة أحاديث الرجال، فكان استغراب الابن عائداً إلى اقتحام المرأة/ الأم/ الزوجة ساحة الحديث الفحولي ومجرياته البطولية، كما استنكر الفرزدق اقتحام المرأة عالم الشعر الفحولي، ولهذا غدت تلك الحادثة مثلاً لأنَّها دخلت ضمن حدود التعجب والاستغراب والاستهجان لحديث المرأة عن غزو الرجل وبطولاته التي كان الأجدر بها أن تتجنب روايتها، أو لدخولها عالم الشعر وقولها فيه.

أو فيما يكون من مشاورة النساء في أمور، فإنَّ القوى الضاغطة قد أجبرت الرجل على استخفاف عقولهنَّ فلا يستجيب لمشوراتهنَّ، بل يجب مشاورتهنَّ ومخالفتهنَّ، وفرض القوامة عليهنَّ، وأنَّ الحرص على إبقائهنَّ داخل البيوت أنجع لعفتهنَّ، ولا يسمح بتركهنَّ لأنَّ في ذلك إتاحة الفرصة للانحراف، فإنَّ المرأة لا تترك دون محرم أو زوج، فإن تركت جنحت إلى البغاء والانحراف.

لقد قدمت لنا بنية الأمثال العربية صورة عن المرأة لا تخرج عن حدود الحمق، والسخف، والمكر، والغباء، ونقص العقل والإيمان، والبحث الدائم عن النكاح والجنس والدعوة إليه، والبخل والحقد والغيرة وكل ما هو دوني وسافل وهامش ودنيء.

ومما تجدر الإشارة إليه؛ هو أنَّ بعض الأمثال العربية قدمت صيغتها وفق ضمير التأنيث، في حين يكون مضربها لموقف ذكوري (*) ، وهذا ما يشير إلى أن أصل المثل قد قيل في امرأة، وإنْ صدق في حال من الأحوال على الرجل فيمكن أن يضرب به المثل، ولكن الرجل لم يكن مشاركاً فيه، بل المرأة هي الأساس الذي عقدت حوله الحكاية التي أصبحت مثلاً، فالمنظومة الجندرية لم تجد مثالاً للبخل والمنع أفضل من المرأة؛ لأنَّ الرجل قد عرف بكرمه وشجاعته ونبله وفقهه وحكمته وغيرها من الصفات التي احتكرتها القوى الفحولية[105]، فكان البخل من نصيب المرأة ولا يمكن أن تتم صياغة مثل عن حكاية في البخل يكون بطلها رجل؛ لأنه سبق وأن تم إعلاء شأنه بالكرم والسخاء وإقراء الضيف، حتى كأنَّ هذا المثل أصبح المعادل الموازي عكسياً للمثل الآخر القائل: أجود من حاتم[106].

كما أنَّها لا تجد مثالاً أفضل من حكايات عن المرأة الحمقاء، أو تلك التي تتبع الرجال لإشباع الهوس الروحي المسكون بالجنس، أو عن النساء اللواتي لا يجدن سوى المكر والخديعة سبيلاً للحياة، فضلاً عن حال كونهنَّ مشبعات بالنقص العقلي والغباء والحمق وأنَّهنَّ يسقطنَّ الرجال في مكرهنَّ؛ لأنهنَّ حبائل الشيطان، وصواحب يوسف، وسبل الإغواء، فلا يجد الرجل إلا ما يمنحه القدرة على تحمل تلك العاهة المشوهة إنسانياً، وأن يحرص على حبسها وملاطفتها دائماً لأنَّها فِراشَه الوثير.

كما أعادت الأمثال إنتاج الحكايات أو المقولات التأسيسية الأولى، التي أسهمت في تأسيس الاختلاف الجندري بين قطبي الذكورة والأنوثة، فهي (أي الأمثال) تستند في بنائها إلى أساطير، ومحكيات، وسرود، وقصص، وحكم، وأحاديث نبوية، ومرويات، وسير وغيرها الكثير من سرديات كانت من أهم القوى التي أسست للاختلاف، ومن هنا جاءت بنية الأمثال لتعيد إنتاج تلك السرديات مرة أخرى؛ ليظل المجتمع بين مطرقة السرد المؤسس وسندان السرديات التمثيلية فلا يستطيع، بل لا يمكن له أن تصوّر ما هو خارج تلك المقولات الراسخة.

2- سرديات الجاحظ: أنموذجاً معرفياً

تنتمي سرديات الجاحظ إلى ذلك النوع الأدبي الخاص الذي يعنى بالمعرفة، وتكون غايته الأساسية إيصال معرفة ما إلى المتلقي[107]، كما أنَّ أهم ما يميز كتابات الجاحظ أنَّها تتعرض للقضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية والكلامية من خلال طرح مختلف الآراء والتوجهات في المسالة الواحدة، فالجاحظ بسبب فكره الاعتزالي ومنهجه العقلي يتجه في كل مؤلفاته إلى طرح الموضوع ومناقشته من جانبين أو أكثر، وخلال ذلك

105 - الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط2، 1987: 201- 212

106 - الميداني، مجمع الأمثال، سبق ذكره: 192

107 - عبد الله إبراهيم، النثر العربي القديم- بحث في البنية السردية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة- قطر، ط1، 2002: 1

يقوم بعرض الآراء والحجج والأقوال لكل فريق، وهو بذلك يشكل حالة من الجدل بين فريقين ينتمي كل واحد منهما إلى رأي أو وجهة نظر معينة.

كما لا يخفى أنَّ الجاحظ يحاول في أغلب سردياته الابتعاد عن صدارة الرأي والأحكام، بل يوكل ذلك إلى مجموعة من الرواة الذين يقف خلفهم ويترك لهم تقديم الحجج والبراهين بما يسعف كل فريق بالاستدلال في طرح الرأي، لذا نجد الكثير من جمل مثل (حدثني، قال، حكى، يرى أصحاب هذا..، ويقول أصحاب.. وغيرها) من الصيغ التي تجعل الجاحظ واقفاً خلف رواته دائماً، وهو (أي الجاحظ) في أسلوبه هذا الذي يبدو مخاتلاً إلى حد ما، يوهم القارئ بحقيقة أولئك الرواة أو المتكلمين المتخاصمين، وإيراده لآرائهم، فهو يقول في رسالة القيان: «هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سميناها في صدرها. فإن كانت صحيحة فقد أدينا منها حق الرواية، والذين كتبوها أولى بما قد تقلدوا من الحجة منها. وإنْ كانت منحولة فمن قبل الطُّفَيليِّين، إذ كانوا قد أقاموا الحجة في اطراح الحشمة، والمرتبطين ليسهَّلوا على المقيِّنين ما صنعه المقترفون. فإن قال قائل: إنَّ لها في كل صنف من هذه الثلاثة الأصناف حظاً وسبباً فقد صدق»[108]، وهنا لا يعترف الجاحظ بصحة ما نقله عن الرواة، ولا يدعي أنَّه قد ألَّفها، وإنما يضع القارئ بين تصديق وتكذيب أو لتقليب كل الاحتمالات.

وهذا ما يريده الجاحظ بالتأكيد، أنَّه يسعى إلى تقليب الأفكار والموضوعات على وجوه عدة، ليتسع طرحها بشمول الوجوه المطروحة كافة، وفي الوقت نفسه يستطيع الجاحظ من خلال هذا الطرح؛ أن يمنح الموضوع مدياته الأوسع دون الاكتفاء بطرح وجهة نظر واحدة، أو فيما يتعلق بمعتقده وفيما يراه، فيكون قد حجب عنا العديد من الطروحات الفعلية المتوالدة عن ذلك الموضوع «فإنما هي النزعة الفنية القوية التي كانت تدفع بالجاحظ في تلك السبيل، يرسم صوراً من هذه الحياة وينفث فيها الحياة، وينفخ فيها من روحه، ويعرضها في أسلوب طبيعي جميل أشبه شيء بهذه الحياة نفسها، متاعاً للروح الإنسانية والخيال الشعري»[109]، حتى أصبحت من أبرز مميزات أدب الجاحظ.

وما يفيدنا من أدب الجاحظ أنَّه يضعنا أمام الصورة الواقعية للمجتمع الذي عبر عنه بوساطة الأدب، ومن خلال عرضه وتقليبه لمختلف الآراء والتوجهات والحجج المطروحة في الساحة الأدبية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وهذا ما يتيح لنا معرفة العديد من تفاصيل الحياة بمختلف ألوانها من خلال بحثه في جميع الآراء المتضاربة في الموضوع الواحد، يقول: «ونحن حفظك الله، إذا استنطقنا الشاهد، وأحلنا على المثل، فالخصومة حينئذ إنما هي بينهم وبينها؛ إذ كنا نحن لم نستشهد إلا بما ذكرنا. وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا، إلا أن يكون شيء يثبت بالقياس، أو يبطل بالقياس، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه، ولتثبيته وإظهار حجته»[110]،

108 - الجاحظ، رسائل الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1964: ج2/ 181

109 - الجاحظ، البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط5. د.ت: 42 من المقدمة للحاجري.

110 - الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1967: ج14/6

فهو لا يتعمد القطع بالموضوعات، بل يتمثلها، ويتقمص أدوار أصحابها، ويعيد حكايتها، ويحتج لطرحها، ويصوغ شواهدها وأمثالها وبنياتها، حتى يكون بذلك قد غطى المساحة الكافية لامتدادات الموضوع، ولخص كل ما دار فيه وحوله وعنه.

وربما كانت هذه الطريقة التي تميّز بها الجاحظ في عرض الموضوع ونقيضه «والدفاع عن كلا الجانبين بنفس الحماس وبنفس القابلية دون أن ينحاز إلى واحدة منهما وكتبه في ذم الشيء ومدحه في آنٍ واحد يمكن أن تكون مثلاً بارزاً على هذه القابلية، قابلية التضاد في التفكير والقابلية في بناء الشيء ونقضه، وقد تكون صفة الجاحظ هذه مظهراً من مظاهر الحياة الفكرية لعصره الذي امتاز بالشك والتفكير وإعادة النظر في أكثر المقاييس والمذاهب»[111]، وهذا إنما يقدم رؤية ناصعة الوضوح عن الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها التي كان قد عاصرها الجاحظ وعبر عنها بكتبه ورسائله.

ومن هنا سيكون للجاحظ الدور المهم في تقديم صورة حية ونابضة عن مجتمع الدولة العباسية الذي عاشه من 150-255هـ من خلال كل كتاباته الأدبية أو السياسية أو الكلامية؛ لأنه وإن لم يكن يتقصد الواقع ونقله، إلا أنَّ ذلك لا يمنع مطلقاً أن تكون تلك النصوص شاهدة على عصره؛ لأنَّ النصوص لا تنتج في فراغ، فضلاً عن انشغال الجاحظ الدؤوب بالحياة العامة، والطبقات، والمهمَّشين، والمنسيين، والمهن، والحكام، والمجتمع والعادات، والأحاديث، وكل مفاصل الحياة بصورة أشمل. ولهذا سيكون للمرأة نصيب من تلك الرؤى التي قدمها لنا الجاحظ ووظفها داخل مدونته السردية، وتمثَّلها خير تمثيل.

قلنا إنَّ الجاحظ لم يغفل جانباً من جوانب الحركة الاجتماعية والفكرية وغيرها الكثير، ولهذا نجده مهتما بإعادة إنتاج تلك الحكاية التي تدور حول الخطيئة الكبرى لحواء؛ إذ يقول: «**فَرَوَوْا أنَ كعب الاحبار قال: مكتوب في التوراة أنَّ حواء عند ذلك عوقبت بعشر خصال، وأن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه عوقب بعشر خصال، وأنَّ الحية التي دخل فيها إبليس عوقبت أيضا بعشر خصال.**

وأول خصال حواء التي عوقبتْ بها وجع الافتضاض، ثم الطلق، ثم النَّزْع، ثم بقناع الرأس، وما يصيب الوحمى والنفساء من المكروه، والقصر في البيوت، والحيض، وأنَّ الرجال هم القوامون عليهنَّ، وأن تكون عند الجماع هي الأسفل»[112].

ومن اللافت للنظر أنَّ هذه الخصال أو مجموع العقوبات لم تكن موجودة في التوراة، ونحن إذ تعرضنا إليها في الفصل الأول، فلم نجد ما ذكر قد ورد في التوراة، وفضلاً عن ذلك أنَّ هذه الرواية لم يذكر لها الجاحظ صحة، ولم يعرفنا حتى بسندها الإخباري كما هو معروف في أحاديث الرواة والإخباريين.

---

111 - وديعة طه النجم، الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الإرشاد- ساعدت جامعة بغداد على طبعه، بغداد، 1965: 7

112 - الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج4/ 199

ويبدو أنَّ الجاحظ هنا لا يريد أن يقدم لنا رواية صحيحة أو ينقل لنا أسانيد وأحاديث كانت متوافرة ومدونة ومذكورة في العديد من المؤلفات وحتى شائعة لدى الناس، وإنما هذا هو أسلوب الجاحظ، هو أن يعمد إلى موضوع ما، فيضع فيه كل ما يودّ تقديمه وطرحه من خلال رواية، ربما كما في هذه الرواية عن كعب الأحبار، وهو بذلك لا يريد التجني ووضع الأخبار والروايات على ألسنة الآخرين، بقدر سعيه لتقديم الموضوع على وفق ما يمتلكه من تصور ووجهة نظر أو قياس أو حتى سخرية، فهو يقول عن مرويات كعب الأحبار: «وأنا أظن أنَّ كثيراً مما يحكى عن كعب أنَّه قال: مكتوب في التوراة أنَّه إنَّما قال: نجد في الكتب، وهو إنما يعني كتب الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان، وما في كتبهم مثل كتب أشعياء وغيره»[113]، والجاحظ هنا يشكك في رواية الأحاديث عن كعب الأحبار، ويرجح أنَّه يقول ذلك عن كتب اليهود دون كتاب التوراة على وجه الخصوص، وهنا يومئ الجاحظ إلى نوع من الحكايات التي دخلت إلى الثقافة الإسلامية من مواريث اليهود وكتبهم الخاصة بهم، وليس عن طريق التوراة بالضرورة، وهذا ما يفتح الباب على العديد من القضايا التي ذكرها اليهود وحدثوا بها المسلمين على أنَّها من كتاب التوراة والحقيقة أنَّها لم تكن كذلك، بل هي ما ورثه اليهود من كتب أخرى.

ونرى أنَّ الجاحظ تعمّد ذكر تلك الصفات التي ألحقت بحواء[114]، التي هي بخلاف ماورد في التوراة وزاد عليها الكثير، ليقول إنَّ ما فُرض على المرأة وما تعيشه في مجتمعها كله معقود بتلك اللعنة القديمة التي ذكرها

---

113 - المصدر نفسه: ج4/ 202

114 - ظلت هذه الخطيئة خالدة على مر العصور، فقد تتبعنا جذورها النسقية من الأساطير السومرية إلى الأساطير العربية مروراً بالتوراة والكتب الإسلامية في التفسير والأحاديث، وها هي في مدونات السرد العربي في العصرين الأموي والعباسي وما بعدهما، فحكاية الخطيئة وخلق حواء، والضلع الأعوج، نجدها في مدونة عربية قديمة. وقال بعض الشعراء: هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا أنَّ تقويم الضلوع انكسارها أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى أليس عجيباً ضعفها واقتدارها وقال ابن المقفع: إياك مشاورة النساء، فإنَّ رأيهنَّ إلى أفن، وعزمهنَّ إلى وهن، واكفف عليهنَّ من أبصارهنَّ بحجابك إياهنَّ، فإنَّ شدة الحجاب، خير لك من الارتياب. وليس خروجهنَّ بأشد من دخول من لا تثق به عليهنَّ، فإن استطعت ألا يعرفنَّ عليك فافعل. ولا تُمَلّكنّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإنَّ ذلك أنعم لحالها وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها، وإنَّما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها إن تشفع عندك لغيرها. ولا تُطل الخلوة مع النساء فيملنك وتملهنَّ؛ واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهنَّ وهُنّ يُردنك باقتدار، خير من أن يهجمنَّ عليك على انكسار. وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإنَّ ذلك يدعو الصحيحة منهنَّ إلى السقم. عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: النساء عورة فاستروها بالبيوت، وداووا ضعفهنَّ بالسكوت. وفي حديث آخر لعمر: لا تُسكنوا نساءكم العُرف، ولا تعلموهنَّ الكتابة، واستعينوا عليهنَّ بالعُرْى، وأكثروا لهنَّ من قول لا، فإنَّ نَعَم تغريهنَّ على المسألة. قال الأصمعي: قيل لعقيل بن علفة وكان غيوراً: من خلفت في أهلك؟ فقال: الحافظيْن، العُرى والجوع. يعني أنه يجيعهنَّ فلا يمزحنَّ، ويعريهنَّ فلا يمرحنَّ. وغير ذلك الكثير من المقولات التي أُعيد إنتاجها وتمثلها، ونحن نلاحظ كيف تنسب هذه المقولات في كل مرة لقائل، مما يدل على سلطة جندرية كانت تهيمن على صناعة تلك المقولات، وهي كثيرة جداً وما ذكرناه هو للإشارة على إعادة الإنتاج التي تمثلها الكتاب والادباء والمدونون مرة بعد أخرى، ومن كاتب إلى آخر، حتى أصبحت جزءاً من الثقافة والادب والتراث. ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان. د.ت.: ج4/ 1-147. و: ابن الخطيب، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، تحقيق: محمود فاخوري، دار القلم العربي، بيروت. د.ت: 289. حتى جاء في مصنفات الأدب أنَّ حواء سألت «إلهي خلقتني من ضلع أعوج، وجعلتني ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث، وضربتني بالنجاسة، وحرمتني الجمعة والجماعات؛ وذكرت مشقة الحمل والولادة- فأسألك أن تعطيني مثل ما أعطيتهم. فقيل لها: قد وهبت لك الحياء والأنس والرحمة، وكتبت لك من ثواب الحمل والولادة ما لو رأيتيه لقرّت به عيناك، فأي امرأة ماتت في ولادتها حشرتُها في زمرة الشهداء. قالت: حسبي يا رب». النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. د.ت.: ج13/ 23. وهكذا ترسخ هذا الموروث الديني في العقل الجماعي، للإقرار بنقص عقل المرأة واعوجاجها وتابعيتها، ونجاستها.. ورسخ في الوقت نفسه أنَّ كل ما يمنح لها من أدوار في الولادة والإنجاب هو بمنزلة التعويض الإلهي عن العقوبة، وبهذا تحقق القوى الجندرية الذكورية إحراز القناعة التامة لدى النساء أنهنَّ ناقصات ونجسات ومعوجات والخ، وفي الوقت نفسه راضيات قانعات بأدوارهن الإنجابية. ومع تقدم العصور تحاك القصص والحكايات والأخبار فيما يدعم تلك الرؤية، ويعززها في ثقافة المجتمع ووعيه، وهكذا تستمر هذه المحكيات والأخبار حتى إنَّ بعض العلماء لشدة شهوة الباه في قلوب النساء، وتمكنه فيهنَّ، وشدة غيرته، يقول: ليس المصيبة في معاتبة الرجل المرأة، إنما المصيبة في معاتبتها إياه، فإنَّها إنْ نظرت إليه ووقع بقلبها موقع حظوة لم يلبث أن تصير في يده وتبعث الرسائل والأشعار والتحف» وقال إسحاق: «رأيت رجلاً بطريق مكة، تعادله في المحمل جارية قد شد عينيها والغطا مكشوف، ووجها بادٍ، فقلت له في ذلك. فقال: إنَّما أخاف عليها من عينيها، لا من عيون الناس». ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، 1982: 10 وما بعدها.

اليهود، والدليل على ذلك أنَّه قال في رسالة القيان: «**فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء، في الجاهلية والإسلام، حتى ضُرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة (...) ثم كانت الشرائف من النساء يقعدنَّ للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية، ولا حراماً في الإسلام**»[115]. وهنا يقدم الجاحظ الحجة على المجتمع، وكأن الجاحظ قد تنبّه إلى تلك الأنساق المضمرة التي حملها المجتمع عبر قرون لتصل إلى حاضرة الدولة العباسية وتمارس دورها في جندرة المجتمع عبر وسيلة الدين، وها هو الجاحظ ينكر على قومه ما قيدوا به مجتمعهم؛ لأنَّه يرى «كل شيء لم يوجد محرَّماً في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مطلق. وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس مالم نُخرج من التحريم دليلاً على حسنه، وداعياً إلى حلاله»[116].

فليس الأمر على وفق ما يراه الجاحظ باستقباح الناس واستحسانهم، وهذا إنما يشير إلى وعي الجاحظ بعلاقة المؤثرات الاجتماعية والثقافية في بلورة العديد من القضايا التي تدخل عمق الوعي الاجتماعي وتندغم في كافة تنويعاته العبادية والدينية وحتى الممارسات، فهو يستدل بوساطة منهجه الجدلي العقلي وفق الحجج التي ينطلق منها الآخرون في تدعيم اعتقادهم، وهي في الغالب دينية راجعة في أسسها إلى القرآن والسنة، ولذلك عاد الجاحظ إلى القرآن والسنة ليبين أنَّ تلك المسائل الاختلافية لم تكن موجودة في القرآن ولم يشر إليها، كما أنَّها لم تكن ضمن السنة النبوية ولم يعمل بها أحد من الأوائل.

ولهذا كان الجاحظ يقظاً جداً وهو يعبر بقوله: «حتى ضُرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة»[117]؛ لأنه كان قد احتج قبلها بقوله: «**فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة**»[118]، ولكن المجتمع تمادى بممنوعاته ومحرماته التي اكتسبها ثقافياً وعلَّقها على حساب الدين والقرآن والغيرة الذكورية لتصبح واقعاً مجندراً يحتكر السلطة والشرعية في تشكيل القوى الذكورية حسب ما تقتضيه، بل يشير الجاحظ إلى أنَّ تلك المحادثة كانت هي السبب في الوصلة بين جميل وبثينة، وعفراء وعروة، وكثير وعزة، وقيس ولبنى، وأسماء ومرقش، وعبد الله بن عجلان وهند، إذ لم يكن للجنس حضوره الكلي في المجتمع، ولا يمكن أن يكون محور العلاقة بين الجنسين؛ فالجاحظ يؤكد أنَّ المرأة لم تكن بعد قد تحولت إلى لعبة الجنس واللذة، وهو يلقي اللوم والتبعة على المجتمع الذي قادها نحو هذه النتيجة، إذ يذكر في إحدى الحكايات «**لقد حسك في صدر أخي بثينة من جميل ما حسك من استعظام المؤانسة، وخروج العذر عن المخالطة، وشكا ذلك إلى زوجها وهزّه ما حشمه، فكَمَنا لجميل عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحنا لها: هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء، فيما يشفي غليل العشق**

115 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: 149

116 - المصدر نفسه: ج147/2

117 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج149/2

118 - المصدر نفسه: ج2/ 148

ويطفئ نائرة الشوق؟ قالت: لا. قال: ولِمْ؟ قالت: إنَّ الحبَّ إذا نكِح فَسَد! فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه، فقال: أما والله لو أنعمتِ لي لملأته منك! فلما سمعا بذلك وثقا بغيبه وركَنا إلى عفافه، وانصرفا عن قتله، وأباحاه النظر والمحادثة»[119].

تشير هذه الحكاية التي أوردها الجاحظ للاستدلال على عفّة العشاق ونزاهتهم عن الجنس، وأنَّ المحادثة والمؤانسة بين الرجال والنساء لم تكن ممنوعة ولا محرمة، ولا يمكن أنْ تُختزل بالجنس والنكاح والمتع الجسدية، وتشير إلى أنَّ الجو الثقافي العام كان قد استهجن هذه الظواهر، بل جرَّمها وحرَّمها، وهذا ما استدعى من الجاحظ أن يعيد تلك الحكايات التي تدل على أنَّ الاختلاط لم يكن خارجاً عن الأطر الاجتماعية العامة، حتى مع مجيء الإسلام.

كما ألمح الجاحظ إلى الغيرة التي تميز بها الرجال وأصبحت من علامات الفحولة والقوة والشهامة والإيمان، إذ يقول: «**ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجها**»[120]، كل مالم يحرمه الله لا دخل للغيرة فيه، وهو ينقل بعض القصص والروايات عن كبار الصحابة وهم ينظرون ويدخلون على بعض النساء دون أن يكون في ذلك حرج، أو فساد وهم ممن عُرف بالزهد والتقوى والإيمان[121].

ويبدو أنَّ الجاحظ لم يكن في صدد النقد للظواهر الاجتماعية والثقافية، وإنَّما كان يعمل على تبرير تلك الممارسات التي ولع بها الأمراء والملوك والأشراف في قصورهم من حبّ النساء وكثرتهنَّ في الدواوين والقصور، والغناء والطرب والعزف والمسامرات واتخاذهم الإماء اللواتي يدخلنَّ الدواوين ويخدمنَّ الحاضرين...إلخ من الممارسات التي عجَّت بها قصور الدولة العباسية؛ لأنَّ الجاحظ كما هو معروف عنه؛ كان يؤلف الكثير من كتبه ورسائله من أجل بعض الأمراء أو الملوك أو الأشراف «إنَّ من أسباب اتباع الجاحظ هذا السبيل في الكتابة أنَّه كتب كثيراً من مؤلفاته بوحي من بعض المسؤولين في الخلافة العباسية وهناك ما يشير إلى أنه كان يستلم هبات أو حتى مشاهره على كتاباته وأنَّه ربما كان يعيش من كتاباته بالدرجة الأولى»[122]، فهو في كل كتاباته يحاول استرضاء السلطة أو أن يقدم لهم ما يجدون فيه فائدتهم ومبتغاهم، حتى أنَّهم يقبلون عليه بالأثمان والعطايا، فقد «حُكي عن ميمون بن هارون أنَّه قال: قال لي الجاحظ: أهديت كتاب ‹الحيوان› لابن الزيات، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب ‹البيان والتبيين› لأبي داود، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب ‹النخل والزرع› لإبراهيم الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار، قال: فلست أحتاج إلى شراء ضيعة ولا غيرها»[123].

---

119 - المصدر نفسه: ج2/148- 149

120 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج148/2

121 - المصدر نفسه: ج2/ 149

122 - وديعة طه النجم، الجاحظ والحاضرة العباسية، سبق ذكره: 7

123 - ابن حَجَر العسقلاني، لسان الميزان، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت- لبنان، ط1، 2002: ج6/ 193

كذلك يمكننا ملاحظة أنَّ جميع مؤلفات الجاحظ تبتدئ بتقديم الحجة بعد أن يضع المروي له في صدارة الكتاب، ومن خلاله يمكننا أن نتعرف ببساطة أنَّ الجاحظ كان يعتني بما يشتمل عليه الكتاب من موضوعات تلامس ذوق المروي له، فرسالته في القيان لا نظن أنَّها أبعد من أن تكون محاولة في تبرير امتلاك الخلفاء والملوك والأمراء والأشراف وأصحاب النفوذ والجاه والسلطة لأعداد من القيان والجواري واللعب معهنَّ والتغزل بهنَّ ومنادمتهنَّ وغيرها من الأمور التي كانت تقدمها تلك النساء من الإماء والجواري والقيان في قصور الرجال[124]، يقول الجاحظ في مفتتح رسالته في القيان: «فوضعنا في كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان، وسبَّنا بمنادمة الإخوان، ونقم علينا إظهار النعم والحديث بها»[125]، بل نجد الجاحظ يورد العديد من الأخبار التي تسند رأيه وما يحاول تبريره لأصحاب السلطة، ومنها ما جاء في روايته عن معاوية «**وكان معاوية يؤتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه، ويضع القضيب على رَكَبها، ثم يقول: إنَّه لمتاعٌ لو وجد متاعاً! ثم يقول لصعصعة ابن صوحان: خذها لبعض ولدك، فإنها لا تحل ليزيد بعد أن فعلتُ بها ما فعلت**»[126]، وهو يقول عن معاوية إنَّه كان أحد الأئمة إذ لا يمكن أن يقدم على فعل محرم[127].

لقد فضحت تلك الحجج التي يقدمها الجاحظ من أجل إسناد رأيه في القيان والنساء والحديث معهنَّ والتمتع بهنَّ، العديد من القضايا الجندرية التي كانت تمارس في المجتمع العربي العباسي، وهذه الرواية إنما تشي بوضوح بتمثل الخطابات السابقة التي جعلت من المرأة أداة للمتعة واللذة والجنس، حتى أصبحت هدية تهدى، أو ربما لعبة يأخذها الرجل لبعض أولاده.

وهكذا يستمر الجاحظ بمحاولة التجذير للممارسات القائمة في قصور الخلافة وما شابهها في المجتمع، مثل الغناء والقيان والغلمان، ففي روايته يقول: «**وكان لعبد الله بن جعفر الطيار جوار يتغنين، وغلامٌ يقال له،بديع، يتغنى، فعابه بذلك الحكم بن مروان، فقال وما عليَّ أن آخذ الجيد من أشعار العرب وأُلقيه إلى الجواري فيترنمن به ويشذرنه بحلوقهنَّ ونغمهنَّ!**»[128]، ليصل إلى نتيجة تبيح غناء القيان والغلمان ووفرتهنَّ وسماع الأغاني والطرب؛ لأنَّ ذلك من فعل الخلفاء والأئمة الذين لو كان حراماً لكانوا أجدر بتحريمه ومنعه.

لقد حَمَل السرد العربي القديم كل أشكال الخطابات الجندرية السابقة، التي أصبحت بنية ثقافية انغمست بنيوياً داخل المجتمع، وأخذت مشروعيتها من السلطة الدينية، وتبريرات الكتّاب والوعّاظ كما رأينا في كتابات الجاحظ وحججه، ولهذا لا نجد من الغريب أن يذكر الجاحظ عن سوق الجواري وعمليات شرائهنَّ

124 - عبد السلام الترمانيني، الرّق، ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة- الكويت، نوفمبر، 1979: 97 وما بعدها.

125 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج146/2

126 - المصدر نفسه: ج155/2

127 - ومنه ما جاء عنه أيضاً: «رأى معاوية كاتبا له يكلم جارية لامرأته فاختة بنت قرظة، في بعض طرق داره، ثم خطب ذلك الكاتب تلك الجارية فزوجها منه، فدخل معاوية إلى فاختة، وهي متحشّدة في تعبئة عطر لعرس جاريتها، فقال هوّني عليك يا ابنة قرظة، فإني أحسب الابتناء قد كان منذ حين!، ومعاوية أحد الأئمة، فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقع اليقين، وإنما حل محل ظن وحسبان، لم يقض به ولم يوجبه، ولو اجبه لحد عليه». الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج154/2- 155

128 - المصدر نفسه: ج159/2

وشروط التقليب والتأمل والفحص: «**وبعد فإنَّ الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العِلْق ويتأملاه تأملاً بيّنا يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات. وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة؛ فقد يعرف بالحسن والقبح (...) وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهنَّ، ومغازلتهنَّ ومصافحتهنَّ للسلام ووضع اليد عليهنَّ للتقليب والنظر، حلال مالم يشب ذلك ما يحرم**»[129].

ويلتفت الجاحظ إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي فيما يتعلق بالتربية الجندرية؛ إذ تسهم التنشئة من الأسرة والمجتمع والتعليم والبيئة في تعميق ثقافة الاختلاف، وخلق أجيال من المجتمع سيتلقّون تربية تجعلهم مصنَّفين ومعدّين جندرياً، حتى تتلقاهم القيم والعادات والدين والأفكار التي ستعمق تلك الثقافة، وهذا ما التفت إليه الجاحظ في حديثه عن التنشئة التي تتلقاها القيان في المجتمع، يقول: «**وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تُكتسب الأهواء، وتُتعلَّم الألسنُ والاخلاقُ بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدِها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأحاديث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جِدٍ ولا يُرجَع منه إلى ثقة ولادين ولا صيانة مروَّة**»[130].

والحقيقة أنَّ التنشئة التي تتلقاها القيان، أو الأطفال من الذكور والإناث ستكون هي الفاعل الأول في تشكيل الصفات الجندرية التي يمنحها المجتمع والثقافة والدين والمعتقد والسلوك والممارسة وغيرها عند هؤلاء، وما يعزز تلك الصفات المكتسبة هو أنَّ خروجهم من مرحلة إلى أخرى لا يكون سوى انتقال من وضع مجندر إلى آخر؛ أي إنَّهم في كل مرحلة من مراحلهم العمرية ستكون بانتظارهم صفات جندرية تلتصق بكل جنس دون الآخر، وهكذا تتم تنشئة الأجيال الاجتماعية على وفق أنساق مهيمنة.

وفيما يخص الجواري والغلمان، فإنَّ عملية تنشئتهم تتم في بيئة معدة ومهيئة سلفاً لإعدادهم؛ وذلك لإدخالهم ضمن عمليات التسويق التي ستكون في أسواق خاصة تعرض فيها هذه (السلعة) من العبيد والإماء، وأنَّ هذه التنشئة تبدأ منذ استعبادهم أو لحظة امتلاكهم أو وقوعهم في الأسر بعد حرب أو غزو أو خطف، ليؤتى بهم إلى عالم جديد في بلد آخر، وهنا تتمثل لحظة العبودية؛ وهي (الولادة الثقافية) للعبد أو الأمة، لتدخل تلك المجموعات في مصانع جندرية -إن جاز التعبير- ليتم تصنيفهم وفق آليات تتناسب والذوق العام،

---

129 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج2/161- 163. وهناك العديد من الكتب التي ألفت في فنون تسليع الرقيق، وما يجب الالتفات إليه عن الابتياع، ومنها رسالة ابن بطلان (444هـ) في شرى الرقيق وتقليب العبيد الموصوفة بـ (رسالة جامعة لفنون نافعة)، وكتاب (هداية المريد في تقليب العبيد) لمحمد الغزالي (923-1212)، وفيهما يقدم ابن بطلان، والغزالي مجموعة من النصائح والمعلومات التي يجب مراعاتها في بيع وشراء الرقيق، في من يرغب بشراء السليمة الأعضاء، أو من يريدهنَّ للخدمة، أو للمتعة، وأن لا يقطع بالشراء من أول نظرة، وأن لا يقدم على الشراء في المواسم فإنَّ النخاسين يقومون بالحيل، بالتدليس وتغيير المظاهر والتجميل، وعليه يجب ملاحظة مجموعة من النصائح في فحص كل عضو من الأعضاء عند الشراء، من الرأس والعينين والأذنين واليدين والرجلين، والأسنان، واللثة، والصدر، والمعدة والمثانة، والقضيب، والأنثيين، والرحم، وصفات أخرى في الحركات والمشي، والخلق، وفيما يخص المنشأ، وذكر أجناس الرقيق بحسب بلادهم ومنشئهم.. وغيرها من الوصايا والنصائح في تجارة الرقيق. راجع: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة- مصر، ط2، 1973: المجموعة الرابعة/ 352- 410

130 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج2/ 176.

أو ما يناسب حركة السوق من العرض والطلب، فيكون فيهم العليَّة الذين يباعون في أسواق خاصة، ووَخش يباعون في أسواق عامة، وبعد مراحل من التقدم في هذا الفن أو التجارة سيكون هنالك مجموعة من النخاسين المحترفين الذين يقومون بتوفير تلك السلع حسب رغبة السوق، فيقومون بتزيين بضاعتهم مثل تغيير لون الشعر، ولون العينين، والبشرة، والتحكم بالهيئة الجسدية للجارية، ولا يعدم والحال هذه من دخول الغش والتدليس في هذه البضاعة، فيكون شرط التقليب والفحص من أهم متطلبات المشترين[131].

يُذكر أنَّ أول مدرسة نشأت في مكة والمدينة لتعليم الجواري وتقيينهنّ، وانتشرت دور التقيين في العصر العباسي في بغداد والبصرة والكوفة، وكان إبراهيم الموصلي أول من علَّم الجواري الحسان وبَلَغ بهنَّ كل مبلغ ورفع من أقدارهنَّ، إذ كان التقيين قبله مقصوراً على الجواري الصفر والسود، وفي تلك المدارس كانت القيان تتلقى أصنافاً من التعليم والتدريب والتنشئة الجديدة لتناسب الدور الجديد الذي ستتبناه الذي يتقاضى بمقابله نخاسها آلاف الدنانير، حتى جنى بهنَّ المقينون أرباحاً طائلة، ونالوا الحظوة لدى الكبراء والأثرياء، الذين أخذوا يقصدون منازلهم لشراء تلك الأصناف من القيان التي لا تعرض في أسواق الرقيق العادية[132]؛ لأنَّ هذا النوع من الرقيق سيكون وفق ما تتطلبه الذائقة الذكورية والرغبة الفحولية، وعليه يجب أن تنماز بمجموعة من الصفات المرغوبة التي يعمل المختصون بصناعتها، مثل تعليمهنَّ الشعر والغناء والضرب على آلات الموسيقى وقوة الخطاب، والبلاغة، وغيرها من الفنون التي صنعتها الذائقة الذكورية للنموذج الأنثوي الذي يرغب به المجتمع ويستجيب للذائقة الجماعية؛ لأن «للخطاب اللغوي دوره في التواصل الغوائي إلى جانب لغة الجسد، فلأنَّ الجسد لدى العرب قد ظلَّ دائماً مرتبطاً بقيم تتجاوزه وتحدد هويته الثقافية والاجتماعية. فقد خصص العرب لتفنن المرأة في القول والخطاب مصنفات كثيرة كبلاغة النساء لابن طيفور وكتاب القيان للأصفهاني والقيان للجاحظ وما جاء في الأغاني للأصفهاني وأخبار النساء لابن قيم الجوزية والإماء الشواعر للسيوطي (..) فقد كان جمال المرأة الخطابي معترفاً به للنساء الشواعر في العصر الجاهلي. إنَّ فصاحة المرأة وبلاغتها يوازيان وجوديا جمالها (...) ففي المجتمع العباسي لم يقتصر جمال القينة على حسنها، بل تعداه إلى البحث في مدى ظرفها وإتقانها لفنون المحادثة والمسامرة»[133]، وعلى هذا الأساس، برزت إلى الساحة آنذاك العديد من الصفات التي يجب أن تتمتع بها الأنثى الأنموذج أو المثال، وظهرت مؤلفات عديدة ومختصون بهذا الجانب لتعليم الجواري وتدريبهنَّ على هذه الفنون التي هي من أهم صفات التسويق والتسليع العصرية.

131 - وفاء الدريسي، الجواري والغلمان في الثقافة الإسلامية، سبق ذكره: 37- 43

132 - عبد السلام الترمانيني، الرّق، سبق ذكره: 97- 102

133 - فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، سبق ذكره: 107

ويفصّل الجاحظ في حديثه عن تلك الصفات[134] التي تكتسبها القيان، فيقول: «**وتروي الحاذقة منهنّ أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل من ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب: إنما بُنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والعشق، والصبوة، والشوق والغلمة. ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة. وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها؛ لأنَّها إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت. وكل واقف فإلى نقصان أقرب. وإنما فرق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها، والمواظبة عليها. فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه، ولو بغت الغفلة لم تقدر عليها**»[135].

إنَّ هذه التنشئة التي تلقتها الجارية هي الثقافة المجتمعية الجاهزة التي يقدمها النخاس إلى تلك الجارية، -أية جارية-، لتكون وفق متطلبات النظام الذكوري في المجتمع، ولتستجيب لمتطلبات الرغبة الذكورية، فيجري «حصر الأنوثة في أجزاء محدودة من الجسد ذاته، فليس كل ما في الجسد مطلوباً أو شرطاً للأنوثة، بل إنّ بعضه مضاد ومناف للأنوثة، مثل العقل واللسان والعضلية الجسدية الرامزة للقوة وهذه كلها- إن وجدت- فهي علامات ذكورية تظهر على الأنثى وتجري دائماً إزالتها أو تغطيتها بوسائط ثقافية جرى التواطؤ عليها»[136]، وهكذا تتم عمليات الصناعة الجندرية للجواري والغلمان التي ستنتج مجموعات كبيرة من النماذج المشبعة للرغبة الذكورية.

ولا يتعلق موضوع التنشئة بالمرأة لوحدها، بل يلفتنا الجاحظ إلى دور العادات في توجيه سلوك الرجال نحو التعلق بالمرأة بوصفها جسداً، وفي هذا يروي الجاحظ حكاية عن أبي المبارك الصابي، جاء فيها: «**حدثني محمد بن عباد: سمعته يقول -وجرى ذكر النساء ومحلهنَّ من قلوب الرجال، حتى زعموا أنَّ الرجل كلما كان عليهنَّ أحرص كان ذلك أدلّ على تمام الفحولة فيه، وكان أذهب له في الناحية التي هي في خلقته ومعناه وطبعه، إذ كان قد جُعِل رجلاً ولم يُجعل امرأة- قال ابن عباد، فقال لنا: ألستم تعلمون أني قد أربيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ الكِبر ونفاذُ الذّكر، وموت الشهوة، وانقطاع ينبوع النطفة، قد أمات حنينه إلى النساء وتفكيره في الغزل؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون من عوّد نفسه تركهنَّ مُددا، وتخلى عنهنَّ سنينَ ودهراً، أن تكون العادة وتمرين الطبيعة، وتوطين النفس، قد حط من ثقل**

134 - يذكر الجاحظ في باب من كتابه المحاسن والأضداد عنوانه: محاسن الوصائف والمغنيات، ويروي فيه حكاية عن استحسان الجواري المغنيات والجميلات اللاتي زخرت بهنَّ قصور الملوك والأشراف: «قال الأصمعي، بعث إلي هارون الرشيد وهو بالرقة، فحملت إليه فأنزلني الفضل بن الربيع ثم أدخلني عليه وقت الغروب فاستدناني وقال: يا عبد الملك وجهت إليك بسبب جاريتين اهديتا إليَّ وقد أخذتا طرفاً من الأدب أحببت أن تبرز ما عندهما وتسبر على الصواب فيهما ثم أمر بإحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط فقلت لإحداهما ما عندك من العلم. قالت: ما أمر الله في كتابه ثم ما ينظر فيه الناس من الأشعار والأخبار فسألتها عن حروف القرآن فأجابتني كأنها تقرأ في كتاب الله ثم سألتها عن الأشعار والأخبار والنحو والعروض فما قصرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه فقلت لها: فأنشدينا شيئاً، فأنشدت... فقلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت امرأة في نسك رجل مثلها وخبرت الأخرى فوجدتها دونها فأمر أن تُصنع تلك الجارية لتحمل إليه في تلك الليلة. الجاحظ، المحاسن والأضداد، تحقيق: محمد أمين الخانجي الكتبي بقراءته عن الأستاذ الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة السعادة، القاهرة - مصر، سنة 1324هـ: 250

135 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج2/ 176- 177

136 - الغذامي، ثقافة الوهم- مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998: 51

منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتم أنَّ العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض عمد هجر لملامسة النساء. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون من لم يذق طعم الخلوة بهنَّ ولم يجالسهنَّ مبتذلات، ولم يسمع حديثهنَّ وخِلابتهنَّ للقلوب، واستمالتهن للأهواء، ولم يَرَهُنَّ منكشفات عاريات، إذا تقدم له ذلك مع طول الترك، ألا يكون بقي معه من دواعيهنَّ شيء؟!..»[137].

تكشف هذه الحكاية عن أثر المجتمع في توجيه الأفراد نحو سلوكيات معينة وعادات شائعة تفرض إرغاماتها على كل من الرجل والمرأة، فالرجال يتعرضون لإغراءات المرأة التي تشكلت في ذهنه جسداً مرغوباً، والمرأة تعرضت لإرغامات جعلت منها أيقونة المثال الذكوري، وبين هاتين القوتين تتفاعل المهيمنات الجندرية في توجيه المجتمع نحو ممارسات اكتسبت ثباتها في المجتمع، ويخضع كل من الرجل والمرأة لمؤثرات تلك القوى التي تحفز الدوافع الجنسية والرغبات، فكلما زاد الانشغال باستثارة تلك الدوافع الكامنة من الرغبات الجنسية، زاد الاهتمام بها لمحاولة إشباعها. ولهذا، نجد في العديد من الحكايات التي أوردها الجاحظ على الأقل[138]، أنَّه لا سبيل لمقاومة الرجل إزاء تلك الرغبة الجنسية ودوافع الرغبة حينما يستمع لصوت مغنية، أو رؤية امرأة جميلة، حتى إنّ الشخصية الواردة في الحكاية السابقة (حكاية أبي المبارك الصابي) الذي أربأ على المائة، والذي خصى نفسه كما ورد في الحكاية، إلا أنَّه في آخر الأمر يقول: «**هذا وأنتم تعلمون أني سَمَلْتُ عيني يوم خصَيت نفسي، فقد نسيتُ كيفية الصور وكيف تَرُوع، وجهلت المراد منها، وكيف تراد، أفما كان حرياً أن تكون نفسه ساهية لاهية مشغولة بالباب الذي احتمل له هذه المكاره؟! قال: قلنا: صدقت. قال: أوَ لو لم أكن هرماً ولم يكن ها هنا طول اجتناب، وكانت الآلة قائمة أليس في أني لم أذق حيواناً منذ ثمانين سنة ولم تمتل عروقي من الشراب مخافة الزيادة في الشهوة، والنقصان من العزم- أليس في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسْكن الحركة إنْ هاجت؟! قال: قلنا: صدقت. قال: فإني بعد جميع ما وصفت لكم، لأسمع نغمة المرأة فأظن مرة أن كبدي قد ذابت، وأظن مرة أنَّها قد انصدعت، وأظن مرة أن عقلي قد اختُلس، وربما اضطرب فؤادي عند ضحك إحداهنَّ، حتى أظن أنَّه قد خرج من فمي، فكيف ألوم عليهنَّ غيري**»[139].

إنَّ ما قام به بطل هذه الحكاية من عمليات اضطهاد وإخصاء وترويض لنفسه لا تجدي نفعاً مطلقاً؛ لأنه بفعل الخصاء لا يقضي على الدافع الغرزي المكبوت في أعماق تكوينه النفسي، وهو إذا ما حاول ترويض تلك النفس بالزهد، فإنه لا يستطيع قمع ذلك الكائن الثقافي الذي تشكل داخله؛ لأنَّ الاستثارة ستأتيه من العالم الخارجي الذي يراهن على تكوينه السيكولوجي الثقافي المجندر، وهو ما تلقاه منذ طفولته وحتى الهرم،

137 - الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج1/ 126

138 - مثل هذه الحكاية الكثير، منها: «وبينا داود بن المعتمر الصُّبَيري جالسٌ معي، إذ مرت به امرأة جميلة لها قوام وحسن، وعينان عجيبتان، وعليها ثيابٌ بيض، فنهض داود فلم أشك أنه قام ليتبعها، فبعثت غلامي ليعرف ذلك، فلما رجع قلت له: قد علمت أنك إنما قمت لتكلمها؛ فليس ينفعك إلا الصدق، ولا ينجيك مني الجحود، وإنما غايتي أن أعرف كيف ابتدأت القول، وأي شيء قلت لها -وعلمت أنه سيأتي بآبدة. وكان ملياً بالأوابد- قال: ابتدأت القول بأن قلت لها: لولا ما رأيت عليك من سيماء الخير لم أتبعك. قال: فضحكت حتى استندت إلى الحائط، ثم قالت: إنما يمنع مِثْلَكَ من اتباع مثلي والطمع فيها، ما يرى من سيماء الخير فأما إذ قد صار سيماءُ الخير هو الذي يُطمع في النساء فإنا لله وإنا إليه راجعون!». الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج3/ 35- 36.

139 - الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج1: 127- 128

ولذلك نجده في آخر الحكاية يذعن لتلك الرغبات وتستلم لها دوافعه النفسية؛ لأنَّها غرائز مستثارة ومشبعة بالتصورات الجنسية الحافلة باللذات المكبوتة طوال سني حياته الاجتماعية والشحذ الثقافي، حتى ترسخ في لا وعيه أنّ كل ما يصدر من المرأة أو يراه أو يتخيله هو عامل فاعل في الاستثارة الجنسية، وهذا هو ما تم صنعه ثقافياً بوساطة الأدوات الجندرية منذ قرون مضت.

ولهذا لا يغيب عن الجاحظ أنَّ يبني أحكامه العقلية على هذه الحادثة، فنجده معلقاً على هذه الحكاية: «فإن كان -حفظك الله تعالى- قد صدق على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستين سنة أو سبعين سنة؟! وما ظنك به قبل الخصاء بساعة؟! وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان، أن يحتجز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهنَّ والشهوة لهنَّ هذا المقدار»[140]، والإجابة ستكون: لا يشكل ذلك فرقاً كبيراً؛ لأننا لا نتحدث عن الغريزة الفطرية للحاجة الجنسية التي ستكون من الطبيعي ذروتها في مرحلة الشباب، بل الأمر سيكون أشد تفاقماً حينما نكون بصدد الحديث عن الكائن الثقافي الذي كلما استمر بالحياة زاد تشبعه بالمثيرات الجنسانية والتصورات الثقافية الجاهزة، حتى إنه لا يجد فكاكاً منها.

ومن هنا تأسست في المجتمع تلك النسقية الجنسية الذكورية؛ إذ أصبحت المرأة تثير الدوافع الغريزية للرجال متى ما وقعت عليها أعينهم، بل تحوّلت المرأة إلى مثير جنسي راغم يتعرض إليه الرجال في الأسواق والطرقات وفي كل مكان تتواجد فيه النساء، واختزلت المرأة بالجسد الشبق المرغوب والمثير لدوافع الذكور الجنسية، (وهذا هو المؤسس الرئيس لظواهر اجتماعية منحرفة عديدة تعرضت لها المرأة، مثل التحرش، والاغتصاب، والخطف)، كما في هذه الحكاية التي يمكن أن تُسَجَّل ضمن الإرهاصات القديمة لحوادث الاغتصاب والاختطاف: «**حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي القاضي: أنَّ شيخاً من التجار، كان له على بعض القواد مال جليل، يماطله به (...) فقلت قد بقيت لي حاجة. فقال: قل. قلت: تخبرني عن سبب طاعة هذا لك، ومع تهاونه بأكابر أهل الدولة. فقال: يا هذا قد بلغت مرادك، وأخذت مالك فلا تقطعني عن شغلي، وما أعيش منه. فألححت عليه. فقال: أنا رجل أؤم، وأُقرئ في هذا المسجد، منذ أربعين سنة، ومعاشي من هذه الخياطة، لا أعرف غير هذا. وكنت منذ دهر، قد صليت المغرب، وخرجت أريد منزلي، فاجتزت بتركي كان في هذه الدار، فإذا قد اجتازت امرأة جميلة الوجه عليه، فتعلق بها وهو سكران، ليدخلها داره، وهي ممتنعة تستغيث، وليس أحد يغيثها، وتصيح، ولا يمنعها منه أحد، وتقول في جملة كلامها: إنَّ زوجي قد حلف بطلاقي أن لا أبيت عنه، فإن بيّتني هذا، أخرب بيتي، مع ما يرتكبه مني من المعصية، ويلحقه بي من العار. قال: فجئت إلى التركي، ورفقت به، وسألته تركها، فضرب رأسي بدبوس كان في يده فشجني، وآلمني، وأدخل المرأة. فصرت إلى منزلي فغسلت الدم، وشددت الشجة، واسترحت. وخرجت أصلي العشاء، فلما فرغنا منها، قلت لمن حضر: قوموا معي إلى عدوّ الله، هذا التركي، ننكر عليه، ولا نبرح، حتى نخرج المرأة.**

140 - المصدر نفسه: ج1: 128

فقاموا، وجئنا، فضججنا على بابه، فخرج إلينا في عدة من غلمانه، فأوقع بنا الضرب، وقصدني من بين الجماعة فضربني ضرباً عظيماً، كدت أتلف منه، فشالني الجيران إلى منزلي كالتالف. (...) فقلت هذا قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات، فلو أذّنت وقع له أنَّ الفجر قد طلع، فأطلق المرأة، فلحقت بيتها قبل الفجر، فتسلم من أحد المكروهين، ولا يخرب بيتها، مع ما قد جرى عليها...»[141]، وإدراكاً من الرجال لهذا الوضع الجنساني اضطروا إلى تحجيب، وتقنيع، وحبس زوجاتهم عن الآخرين، ومنعهنَّ من الخروج خارج حدود البيت، كي لا تتعرض القيمة الذكورية إلى ما يخدش الغيرة بتعرض الزوجات إلى نظرات الآخرين وشهوانيتهم.

ولكن الأمر وصلت ذروته مع العصرين الأموي والعباسي، حتى زاد قمع المرأة وحبسها أعلى درجاته «ودفعت المرأة العربية إلى قعر بيتها لتعيش محجوبة بين أسواره، وبرز الجواري والقيان يخطرن في أبهاء القصور»[142]، وفي أنحاء المجتمع، وأسرنَ الرجال بسحرهنَّ وجمالهنَّ وفنونهنَّ[143]، الأمر الذي ارتد سلباً على المرأة الحرّة، فحرمت من القراءة والكتابة، إمعاناً في الحبس والقمع والتحجيب، وخشية من أن تتخذ صاحباً تراسله وتبثه لواعج حبها كما يفعل القيان، واكتفوا بتعليم المرأة قراءة المصحف[144].

سلطة ذكورية تعمل وفق ما يقتضيه منطق الهيمنة، فهي التي تضع القوانين والأنظمة حسب ما تراه مناسباً ذكورياً، فتحجيب المرأة لم يكن لأجلها مطلقاً، بل من أجل الرجل بالذات، فالثقافة التي تحدد ممنوعاتها، وتحرسها، وتحرص على إدامتها، فإنها تخاف على المسموح به قبل كل شيء، فالتعسف والعنف هما أداتا السلطة والقوة، فكلما شعرت السلطة بالخوف تجاه شيء ما زادت من تعسفها، لتظل دائما محافظة على هيمنتها، بمقابل ضمان تراجع المرأة، والإمعان في تهميشها، وهكذا كلَّما تراجعت المرأة كلما حافظت الذكورية على مركزيتها، وكلَّما حافظت الذكورية على مركزيتها، عملت الثقافة على طمس هوية المرأة ووضعها داخل دائرة محددة سلفاً، وأحاطتها بسياجات المنع والحجب والتشويه[145].

وإذا ما واجه المجتمع الخاضع للقوى الجندرية تمرداً أنثوياً تخرج فيه إحدى النساء عن السياقات الثقافية، وترفض الانصياع للرغبة الذكورية، فإنه سرعان ما يتم تدجينها وترويضها لإعادة خلقها ثقافياً مرة أخرى، وربما يكون الخروج عن السياق الثقافي العام هو رغبة تلك المرأة بالتحرر أو بالاستجابة إلى دوافعها الذاتية، أو حتى قد يكون رفضاً للنموذج الذكوري المتعرض لها، إلا أنَّ المنظومة الجندرية ستكون حاضرة في عملية تدجين منظمة، وهذا ما نجده في هذه الحكاية عن الجاحظ: «**قال: وأحدثك عن الحمام أيضاً بحديث آخر في أمر النساء والرجال وما يصاب من اللذة فيهنَّ، والصواب في معاملتهنَّ. قال: وذلك أنَّ رجلاً أتاني مرة**

141 - التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي المحامي، دار صادر، بيروت. د.ت: ج1/ 312- 318

142 - عبد السلام الترمانيني، الرّق، سبق ذكره: 121

143 - التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، سبق ذكره: ج5/ 259- 264

144 - عبد السلام الترمانيني، الرّق، سبق ذكره: 125- 132

145 - إبراهيم محمود، الضلع الأعوج- المرأة وهويتها الجنسية الضائعة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2004: 170

فشكا إليّ حالة فتاة عُلِّقها فتزوجها، وكانت جارية حسناء، وكانت بكراً ذات عقلٍ وحياء، وكانت غريرة فيما يحسن النساء من استمالة أهواء الرجال، ومِنْ أخْذها بنصيبها من لذة النساء فلما دخل بها امتنعت عليه، ودافعته عن نفسها، فزاولها بكل ضرب كان يحسنه من لطف، وأدخل عليها من نسائه ونسائها من ظن أنَّها تقبل منهنَّ، فأعيتهنَّ، حتى هم برفضها مع شدة وجده بها، فأتاني فشكا ذلك إليّ مرة، فأمرته أن يفردها ويخليها من الناس، فلا يصل إليها أحد، وأن يضعف لها الكرامة في اللطف والإقامة لما يصلحها من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير ذلك، مما تلهو به امرأة وتعجب به، وأن يجعل خادمتها أعجمية لا تفهم عنها، وهي في ذلك عاقلة، ولا تفهمها إلا بالإيماء؛ حتى تستوحش إليها وإلى كل من يصل إليها من النساء، وحتى تشتهي أن تجد من يراجعها الكلام وتشكو إليه وحشة الوحدة، وأن يدخل عليها أزواجاً من الحمام، ذوات صورة حسنة، وتخيّل وهدير فيصيرهنَّ في بيت نظيف، ويجعل لهنَّ في البيت تمارِيد وبين يدي البيت حجرة نظيفة، ويفتح لها من بيتها باباً فيصرن نُصب عينها فتلهو بهنَّ وتنظر إليهنَّ، ويجعل دخوله عليها في اليوم دفعة لا يزيدها فيه على النظر إلى تلك الحمام، والتسلي بهنَّ، والاستدعاء لهنَّ إلى الهدير ساعة، ثم يخرج، فإنها لا تلبث أن تتفكر في صنيعهنَّ إذا رأت حالهنَّ؛ فإنَّ الطبيعة لا تلبث حتى تحركها، ويكون أوفق المقاعد لها الدنو منهنَّ، وأغلب الملاهي عليها النظر إليهنَّ؛ لأنَّ الحواس لا تؤدي إلى النفس شيئاً من قبل السمع، والبصر، والذوق، والشم، والمجسة إلا تحرك من العقل في قبول ذلك أو ردِّه، والاحتيال في إصابته أو دفعه، والكراهية له أو السرور به بقدر ما حرك النفس منه. فإذا رأيت الغالب عليها الدنو منهنَّ، والتأمل لهنَّ، فأدخل عليها امرأة مجربة غَزلة تأنس بها، وتفطنها لصنيعهنَّ، وتعجبها منهنَّ، وتستعمل فكرتها إليهنَّ، وتصف لها موقع اللذة على قدر ما ترى من تحريك الشهوة، ثم أخرج المرأة عنها، وحاول الدنو منها، فإن رأيت كراهية أمسكت وأعدت المرأة إليها، فإنَّها لا تلبث أن تمكنك، فإن فعلت ما تحب وأمكنتك بعض الإمكان، ولم تبلغ ما تريد فأخبرني بذلك...»[146].

إنَّ كل ما يواجه تلك المنظومة الجندرية من اعتراضات أو عدم استجابة سيكون واقعاً تحت سلطتها وغير خارج عنها؛ لأنه ببساطة سيكون من الحالات الشاذة في المجتمع، ولهذا سيكون من السهل إعادة بلورتها وصنعتها ثقافياً من جديد؛ وذلك من خلال ممارسات التدجين التي ستكون كفيلة بإعادتها إلى السياق العام، ولهذا نجد أنَّ هذا الرجل الحكيم أو المتفرّس سيقترح عزل هذه الفتاة عن العالم حتى تستوحش الوحدة، وتحبس في حجرة، ويلقى إليها الطعام والشراب والحاجات كما تروض الحيوانات وتدجن، وسيتم تغذيتها في المرحلة التالية بالشحذ الجنسي والاستثارة لعواطفها الكامنة، حتى يكون منظر متابعة تلك الطيور من الحمام

146 - الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج3: 287- 290

مع ما تلقيه تلك المرأة بإذنها من محكيات جنسانية، سيعمل ذلك كله بالضرورة على إرغام الفتاة للانصياع والاستجابة والرضوخ؛ لأنه سيكون سهلاً طالما لا يوجد «أخرق من امرأة»[147] كما يعتقدون[148].

ولأنَّ الجاحظ لا يكتفي بمعالجة موضوع واحد، وإنما يتقلب بين موضوعات عدة في مؤلف واحد، فمن الحيوان إلى النادرة إلى المسائل اللغوية إلى الطرائف إلى الشعر والحكايات وغيرها، فإنَّه لايجد غضاضة أنْ يُعيد إنتاج حكايات قديمة يضمنها في فصول مؤلفاته، ومنها حكاية قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته: «**ولما قتل لقمان بن عاد ابنته -وهي صُحْر أخت لقيم- قال حين قتلها: ألست امرأة! وذلك أنَّه قد كان تزوج عدة نساء، كلهنَّ خُنَّهُ في أنفسهنَّ، فلما قتل أخراهنَّ ونزل من الجبل، كان أول من تلقاه صُحْر ابنته، فوثب عليها فقتلها وقال: وأنت أيضاً امرأة! وكان قد ابتلي بأن أخته كانت محمقة وكذلك زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طُهري وهي ليلتك، فدعيني أنام في مضجعك، فإنَّ لقمان رجل منجب، فعسى أن يقع عليَّ فأنجب. فوقع على أخته فحملت بلقيم**»[149].

إنَّ هذه الحكاية لا تشذ عن العديد من الحكايات المسرودة في المجتمع، وهي لا تمج الذوق أو تنشز في الأذن، ولا يستهجنها العامة ولا حتى الخاصة من العلماء؛ لأنها من الحكايات التي اتسعت سردياتها في المجتمع، وتداولتها الألسن، بل تحوَّلت إلى أمثال تضرب «وما أذنَبْتُ الَّا ذَنْبَ صُحْر»[150]، وشاعت في حينها.

كما هو الحال مع العديد من الحكايات التي تدور حول محور الجنس والنساء ومكرهنَّ وحيلهنَّ، وخيانات النساء لأزواجهنَّ؛ لأنهنَّ مهووسات بالجنس، ولا حديث لهنَّ ولاهمّ سوى ذلك، حتى نجد أنَّ بعض الحكايات تركز على العودة بالزمن لحكاية الأحداث، فنجد في حديث امرأة مع بنتها عودة لحديث المرأة عن أمها عن جدتها، وهذا ما يومئ إلى أنَّ تلك المسائل الجنسانية متأصلة في المرأة، وقد ورثتها أُما عن جدة، وربما

147 - المصدر نفسه: ج3/ 471

148 - وهناك ممارسات شتى في حال عدم استجابة المرأة لعمليات الترويض والتدجين، وقد يكون القتل هو الخيار الأمثل في حال اكتشف الرجل خرقاً لمنظومته القامعة، وبالتأكيد في ظل هذا الكبت القسري ستكون هنالك محاولات للتحرر والانعتاق تستفز النسق الذكوري، كما في حكاية إسحاق المصعبي: «حدثني أبو يحيى بن مكرم، القاضي البغدادي، قال: حدثني أبي، قال: كان في جواري شيخ يعرف بأبي عبيدة، حسن الأدب، كثير الرواية للأخبار، وكان ينادم إسحاق بن إبراهيم المصعبي. فحدثني: أن إسحاق استدعاه ذات ليلة، في نصف الليل، بعدة رسل. قال: فهالني ذلك، وأوحشني، لما أعرفه من زعارة أخلاقه، وشدة إسراعه إلى القتل، وخفت أن يكون قد نقم عليّ شيئا في العشرة، أو بلغه عني باطل، فأحفظه، فيقتلني. فخرجت طائر العقل، حتى أتيت داره. فأدخلت من دار إلى أخرى، إلى أن دخلت دار الحرم، فاشتد جزعي، ثم أدخلت إلى حجرة لطيفة، فسمعت في دهليزها، بكاء امرأة، متخافتاً، وهو جالس على كرسي، وبين يديه سيف مسلول. فذهب على أمري، وسلّمت، ووقفت. فقال: اجلس يا أبا عبيدة، فسكن روعي، وجلست. فرمى إلي قصصاً، فإذا هي رقاع أصحاب الشرط في الأرباع، يخبر كل واحد منهم، بخبر يومه، وفي أكثرها، كبسات وقعت، بنساء من بنات الوزراء، والرؤساء من الكتّاب، وبنات القواد والأمراء، مع رجال على ريب، وأنهنَّ محصلات في الحبوس، ويستأذن في أمرهنَّ. فقلت: قد وقفت على هذه الرقاع، فما يأمرني الأمير؟ فقال: إنَّ هؤلاء/ كلهنَّ، أجلّ آباء مني، وأكثر حسباً ومالاً، وقد أفضى بهنّ الدهر إلى ما رأيت، وقد وقع لي أنَّ بناتي سيبلغنَ إلى هذا، وقد جمعتهنّ- وهنّ خمس- بالقرب من هذا الموضع، لأقتلهنّ كلهنّ الساعة، وأستريح، فماذا ترى يا هذا؟ فقلت: أيها الأمير، إنَّ آباء هؤلاء المحبّسات، أخطأوا في تدبيرهنَّ؛ لأنهم خلّفوا عليهنّ النعم، ولم يحفظوهنّ بالأزواج، فخلوهنّ بأنفسهنَّ، ففسدنَّ، ولو كانوا علقوهنّ على الأكفاء، ما جرى هذا منهنّ. والذي أراه، أن تستدعي فلاناً، القائد، فله خمسة بنين، كلهم جميل الوجه حسن النشوة، فتزوج كل واحدة منهنّ، بواحد، فتكفى العار، والنار. فقال أحسنت يا أبا عبيدة، انفذوا الساعة إليه، وافرغ لي من هذا. قال: فراسلت الرجل، فما طلع الفجر، حتى حضر أولاده وعقدت النكاح لهم، على بنات إسحاق، في خطبة واحدة..». التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، سبق ذكره: ج3/ 101- 103.

149 - الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج1/ 21- 22

150 - المصدر نفسه: ج1/ 22

قضت إحداهنَّ حياتها وهي في حديث عن الجنسانية لتورث حفيدتها تلك المعارف؛ لأنَّ الحفيدة ستكون بالضرورة كما كانت الأم والجدة منساقة لنسق واحد، وتنشئة واحدة، فليس من الغرابة أن نجد سؤال البنت لأُمها يكون هو سؤال الأُم لأمها نفسه، والجدة لأُمها أيضا في سلسلة من الإسناد الإخباري كما عهدناه في سرديات العرب القدماء[151].

وكذلك نجد الحكايات التي تمثل لنا مكرَ النساء وخيانتهنَّ، ومحاولاتهنَّ للإيقاع بالرجال من الفحول والأشراف على مرّ التاريخ، وطرائق الإغواء التي تمارسها النساء، وما سواها من الحكايات التي شاعت وانتشرت في المجتمعات العربية وبلغت أوجها في العصر العباسي؛ إذ كانت هي حديث السمر المستملح الذي يجد فيه العربي متعة وتشويقاً ولذة، حتى إنَّ القرآن الكريم تسامح مع الذوق العربي لهاته الحكايات، وقصَّ على النبي وأصحابه قصة يوسف ووقوعه في إغواء زليخا، مع ما يتداخل في هذه القصة من حكايات أخرى تزيد من فعل التشويق والغرابة والانفعال. لهذا نجد في أسباب نزول سورة يوسف أنَّها نزلت لتزيل الملل الذي أصاب أصحاب الرسول لما حوته من الأعاجيب ومنها قصص النساء وحيلهنَّ[152]، وجاء فيها: «**قال عون بن عبد الله: مَلَّ أصحاب رسول الله مَلَّة فقالوا: يا رسول الله، حدثنا: فأنزل الله تعالى:** {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} الآية. قال: ثم أنَّهم مَلّوا مَلَّة أخرى فقالوا: يا رسول الله فوق الحديث ودون القرآن -يعنون القصص- فأنزل الله

151 - لقد امتلك المجتمع العربي تصورات عن عشق النساء للجنس، ورغبتهنَّ الجامحة فيه، بالقدر الذي يتجاوز فيه رغبة الرجال، ويضاف إلى ذلك حمق النساء وقلة حكمتهنَّ ونقص عقولهنَّ، ولهذا نجد العديد من الحكايات التي تقدم المرأة على أنها مهووسة بالجنسانية والممارسة الجنسية، ومنها: «قال أبو الحسن المدائني: قال أبو دهمان الغلابي عن الوقاصي قال وحدثني بذلك الغيدافي عن الوقاصي قال: قالت جارية لامها ليلة زفافها: يا أمَّة، إن كان أير زوجي مثل أير الفيل كيف أحتال حتى انتفع به؟ قال: فقالت الأم: أي بنية قد سألتُ عن هذه المسألة امي فذكرتْ أنّها سألت عنها أمها فقالت: لا يجوز إلا أن يجعلك الله مثل امرأة الفيل. قال: فسكتت حولاً ثم قالت لأمها: يا أُمة، فإني إن سألتُ ربي أن يجعلني مثل امرأة الفيل أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: يا بنية، قد سألت عن هذه المسألة أمي فذكرت أنها سألت عنها أمها فقالت: لا يجوز ذلك إلا أن يجعل الله جميع نساء الرجال مثل نساء الفيلة. قال: فسكتتْ عنها حولاً ثم قالت: فإن سألتُ ربي أن يجعل نساء جميع الرجال مثل نساء الفيلة أتطمعين أنْ يفعل ذلك؟ قالت يا بنية، قد سألتُ عن مثل هذه أمي فذكرتْ أنَّها سألتْ أمها عنها فقالت: لا يجوز ذلك إلا أن يجعل الله جميع رجال النساء مثل رجال نساء الفيلة. قال: فسكتتْ عنها حولا، ثم قالت: فإن سألتُ ربي أن يجعل جميع رجال النساء مثل جميع نساء الفيلة أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: يا بنية، قد سألت عن هذه المسألة امي فتذكرت أنها قد سألتْ أمها عنها، وأنها قالت: يا بنية، إنَّ الله إن جعل جميع الناس فيلة لم تجد امرأة الفيل مع عظم بدنها من اللذة إلا مثل ما تجدين أنت اليوم مع زوجك من اللذة، ثم تذهب عنك لذة الشم والتقبيل والضم والتقليب والعطر والصبغ والحلى والمِشطة والعتاب والتفدية وجميع مالك اليوم. قال: فسكتتْ حولاً ثم قالت: يا أمة: إن سألت ربي أن يجعل أير الفيل أعظم أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت الأم: أي بنية، قد سألتُ عن هذه المسألة أمي فتذكرتْ أنها سألت عنها أمها، وأنَّها قالت: أي بنية، أنَّ الله إنْ جعل أير الفيل أعظم جعل جِرَ امرأة الفيل أوسع وأعظم، فيعود الأمر كله إلى الأمر الأول. قال: فسكتتْ عنها حولاً، ثم قالت: يا أمّة، فإن سألت ربي أن يجعل أير الفيل أشد غلمة فيصير عدد أكوامه أكثر أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: أي بنية، قد سألت عن هذه المسألة أمي فتذكرتْ أنها سألت أمها عنها، وأنَّها قالت: أي بنية سلي الله أن يجعل زوجك أشد غلمة مما هو عليه، ولكن لا تسأليه ذلك حتى تسأليه أن يزيدك في غلمتك. قالت: يا أمة، فإن سألتُ ربي أن يجعله في غلمة التيس أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: أي بنية، قد سألت عن مثل هذه المسألة أمي فذكرتْ أنَّها سألت عنها أمها، وأنها قالت: لا يجوز أن يجعله في غلمة التيس حتى يجعله تيساً، قالت: يا أمة فإن سألت ربي أن يجعله تيساً أتطمعين في ذلك. قالت: أي بنية، إنه لا يجعله تيساً حتى يجعلك عنزاً. قالت: أي أمة، فإن سألته أن يجعله تيساً ويجعلني عنزاً أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: أي بنية قد سألت هذه المسألة أمي فذكرت أنها زارت أمها لتسألها عن هذه المسألة فوجدتها في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وما أشك أن يومي قد دنا. فلم تلبث الأم إلا أياماً حتى ماتت». الجاحظ، الحيوان، سبق ذكره: ج7/ 237- 239. وللاطلاع على حكايات وأخبار وفيرة في هذا المعنى راجع: الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج2/ 123- 137

152 - ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، سبق ذكره: 679

تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص، فدلهم على أحسن القصص»[153]، وقالوا إنَّ المراد من الآية قصة يوسف خاصة[154].

والظاهر أنَّ هذه الآية بحسب سبب النزول كانت لقتل ذلك الملل الذي أصاب الجماعة من أصحاب الرسول، ولم يكن هناك ما يبدد ذلك من حديث أو أحكام إلا القصص، لما اعتاده العرب من الإدهاش والشد والإعجاب بالحكايات الغرائبية أو قصص الجنس والنساء وما سواها، فكانت قصة يوسف تتناغم بشكل كبير مع رغباتهم في سماع هذا النوع من القصص.

وليس بخاف عن المطلع في سرديات التراث العربي أنَّه مليء بالحكايات والقصص والعجائبيات التي يستلذ العربي لسماعها، وهي كل ما دار حول النساء والجنس والعجائب وما إلى ذلك، وبقيت هذه العادات العربية متوارثة وسائرة حتى في العصر العباسي، الذي شاعت فيه هذه الحكايات وازدادت تخييلاً وعمقاً وتداخلاً وأصبحت مادة ثرية مليئة بالأعاجيب والإدهاش والإثارة، حتى إننا نجد الجاحظ يروي حكاية عن الأصمعي، وهو في حضرة الرشيد يوماً: «**قال لي: يا عبد الملك أنا ضجر وأُحبّ أن تسمعني حديثاً مما سمعت من أعاجيب الزمان نفرّج به. فقلت: يا أمير المؤمنين كان لي صاحب في بدو بني فلان وكنت أغشاه وأتحدث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة، وهو أصح الناس ذهناً وأقواهم بدناً فغبت عنه ثم أتيته فوجدته ناحل البدن كاسف البال فسألته عن سبب تغيره فقال: قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها وفي عنقها طبل تنشد عليه (...) فلما سمعت شعري رمت الطبل في وجهي ودخلت الخيمة فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقي ولم تخرج فانصرفت قريح القلب، فهذا التغير من عشقي لها، فضحك الرشيد حتى استلقى وقال: ويلك يا عبد الملك ابن ست وتسعين يعشق. فقلت: قد كان هذا، فقال: يا عباس اعطه..**»[155]. فلم يجد الأصمعي وفق ما يمتلكه من خبره ثقافية للمجتمع الذي يعيشه ما يبدد الملل والضجر إلا ما يحكى عن النساء وأحوالهنَّ وعشقهنَّ وعجائبهنَّ، فمن المعروف لدى المتتبعين «إنَّ حضور الجنسانيات، في الأدب العربي القديم بمختلف نصّياته، لا يعدو أنْ يكون ضرباً من الطرائف والنوادر والحكايات والأخبار والقصص التي يقصد بها إمتاع القارئ والترويح عنه وتثقيفه في المقام الأول، فضلاً عن دفع الأفراد إلى تطوير

153 - الواحدي، أسباب نزول القرآن، سبق ذكره: 276. وفيها أيضا: «قالوا لسلمان أخبرنا عن التوراة فإنَّ فيها العجائب. فأنزل الله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} في هذا القرآن»: السمرقندي، تفسير بحر العلوم، سبق ذكره: ج2/ 150. ومنها: «أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت. فأنزل الله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} إلى قوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} الآية، فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً} قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن»: الواحدي، أسباب نزول القرآن، سبق ذكره: 275

154 - السمعاني، تفسير القرآن، تحقيق: أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط1، 1997: مج3/6. H

155 - الجاحظ، المحاسن والأضداد، سبق ذكره: 250- 251.

مهاراتهم الجنسية، وتنويعها، وإشباع رغباتهم»[156]. ولهذا نجد العديد من المؤلفات التي اختصت بالجنس والنكاح وأحواله وفنونه، فضلاً عن الحكايات والقصص والأخبار التي اتخمت بها كتب التراث العربي القديم[157].

وليس من الغريب أن تكون الجنسانية العربية في ذلك العصر في أعلى مستوياتها لما اجتمع لها من عمق التراث المليء بالحكايات الجنسية وانتشار الجواري والإماء والغلمان، ووفرة الأحاديث التي أباحت التمتع بملك اليمين والتلذذ بهنَّ، فكانت الحياة العربية مليئة بالمغامرات الجنسية، سواء كانت مع الغلمان أم مع الجواري، وقدم الجاحظ في هذا المعنى رسالة أسماها مفاخرة الجواري والغلمان، وفيها يعرض أصحاب كل رأي وحججه على الآخر، حتى ليتكشف أمامنا الواقع الاجتماعي بكل تصوراته عن الجنس والمتع ورغبة بامتلاك الجواري والغلمان، وكيفية التعامل معهم وإدخالهم في عوالم من الجنسانية، وسيكون لكل جماعة ما يمتلك من رغبات يسقطها على الجارية أو على الغلام، فنقرأ: «**لو لم يكن حلال ولا حرام، ولا ثواب ولا عقاب، لكان الذي يُحصّله المعقول ويدركه الحس والوجدان، دالاً على أنَّ الاستمتاع بالجارية أكثر وأطول مدة؛ لأنه أقل ما يكون التمتع بها أربعون عاماً، وليس تجد في الغلام معنى إلا وجدته في الجارية وأضعافه. فإن أردت التفخيذ فأرداف وثيرة، وأعجاز بارزة لا تجدها عند الغلام. وإن أردت طيب المأتى فناهيك، ولا تجد ذلك عند الغلام..**»[158]، حتى إنَّ انتشار هذا الزخم الجنساني في المجتمع العربي قاد إلى تسلل العديد من مفردات الجنس إلى لغة الخطاب اليومية[159]، بعد أن تفحلت اللغة وأصبحت المرأة موضوعاً لغوياً وليست ذاتا لغوية، وصارت اللغة فحولة، وسيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية وقرر ما هو لغوي وما هو مجازي، ولم يبق للمرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي أو مخيال ذهني يكتبه الرجل وينسجه حسب دواعيه البيانية والحياتية[160]، فمن البديهي أن يضع الرجل في اللغة التي أحكم سلطته عليها ونسج مفرداتها كل معانيه المجازية[161]، ويعبر بها وبوساطتها عن الوضع الجنساني، وما يندرج تحته من ألفاظ تكون المرأة فيه وجنسانيتها وجسدها موضوعاً ومادة وتعبيراً للمجازات والكنايات.

---

156 - هيثم سرحان، خطاب الجنس، سبق ذكره: 94

157 - هذا الأمر الذي وظفه أبو العلاء المعري في ابتكار حكاية عن جزيرة النساء جمع فيها كل ما ترغب سماعه أذنُ العربي، حكاية فيها النساء والجنس والعجائبي والاستكشاف والرحلات العجيبة وما إلى ذلك من أحاديث العرب المستملحة، فيروي أبو العلاء: «هي جزيرة فيها ملكة لها جيش نساء ليس فيهن رجل. ويقال إنها تغزو وتحارب وتستظهر في كثير من المرار، ولا يدخل جزيرتها رجل البتة. ويقال إنّ المرأة منهن إذا أرادت الحمل خرجت إلى جزيرة أخرى فصاحبت من تختار من الرجال. وهذا حديث تناقله أهل العلم بالمسالك والممالك. ويقال إنّ ملكها باق إلى اليوم تخلف عليه امرأة بعد امرأة. وقد ادعى بعض الناس أنَّ من شأن الهواء أن يلقح النساء في تلك الجزيرة فيحبلنَ ولا يحتجنَ إلى الرجال. فإذا ولدت ذكراً أخرجته إلى جزيرة أخرى». المعري، رسالة الصَّاهل والشَّاحج، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط2، 1984: 289. و: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، سبق ذكره: 33

158 - الجاحظ، الرسائل، سبق ذكره: ج120/2

159 - لمزيد من التعمق في العلاقة بين اللغة والجنس: علي عبد الحليم حمزة، الجنس وأبعاده- جدل القداسة والإغواء والعنف، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2003: 33- 179

160 - الغذامي، المرأة واللغة، سبق ذكره: 7-8

161 - فرح الفاضلي، الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم- دراسة تحليلية، بغداد- بيروت، ط1، 2018: 178

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com